النيل مآسي

فيلم وثائقي

النيل مآسي

فيلم وثائقي

صنع الله إبراهيم

• الطبعة الأولى 2016

الناشر
دار الثقافة الجديدة
"شركة ذات مسئولية محدودة"
٣٢ ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس: ٢٣٩٢٢٨٨٠
e-mail: elguindimohamed93@gmail.com
http://www.facebook.com/Dar.Elthaqafa.Elgedeeda

ملف الصور الفوتوغرافية: إعداد علي الفارسي
تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح

رقم الإيداع:١٠٦٢٢/ ٢٠١٦
الترقيم الدولي (I.S.B.N): 0 - 217 - 221 - 977 - 978

صنع الله إبراهيم

النيل مآسي

فيلم وثائقي

دار الثقافة الجديدة

مقدمة الطبعة الأولي

في مطلع عام ١٩٩٤ اتصلت بي شركة Image الفرنسية للإنتاج السينمائي، الحديثة التكوين، قائلة إنها بصدد إنتاج أفلام وثائقية عن أهم عشرة أنهار في العالم (الفولجا، المسيسبي، الأمازون، الكانج، الخ) يكتبها كتاب من البلاد المطلة على هذه الأنهار. وأن ذلك سيتم بالاتفاق مع القناة الثانية للتليفزيون الفرنسي. وعرضت علي أن أتولي كتابة سيناريو الفيلم الخاص بنهر النيل.

رحبت بالعرض. فالكتابة عن النيل فضلا عن مشاهدته، من منبعه إلى مصبه، كان أحد أحلامي. واتفقنا على أن أقوم بجولة استكشافية للنهر والبلاد المطلة عليه. وعندما استفسرت عمن سيقوم بالإخراج قالوا إنه أمر قيد البحث. ولم يلبث هذا البحث أن استقر عن المخرجة المصرية أسماء البكري المعروفة بعلاقتها الوثيقة بالجالية الفرنسية في القاهرة (ولعلها أيضا تحمل الجنسية الفرنسية إلى جوار المصرية).

عكفت على قراءة المراجع الضرورية وعلي رأسها مؤلفات محمد عوض محمد ورشدي سعيد واميل لودفيج وآلان مورهيد ومجلة ناشيونال جيوجرافيك. وفي صيف نفس العام قمنا أنا والمخرجة برحلة استكشافية لمنابع النيل، على أن تتبعها رحلة ثانية للتصوير. واكتشفت أنها اتفقت مع

الشركة الفرنسية على أن تتولى مهمة الإنتاج بالإضافة إلى الإخراج، على طريقة "مقاول الباطن".

***

يعتبر نهر النيل أطول أنهار العالم إذ يبلغ طوله ٦٨٥٣ كيلومتر. وتشترك إحدى عشر بلدا في منابعه هي أوغندا ، تنزانيا، رواندا، بوروندي، كونغو، كينيا، إثيوبيا، إريتريا، جنوب السودان، السودان، مصر. كما أنه مصدر المياه الرئيسي لمصر والسودان. قررنا أن نكتفي بمشاهدة المنابع الرئيسية الموزعة بين أوغندا وإثيوبيا. ثم نركز على مجراه في السودان ومصر. حصلنا بسهولة على فيزا لأوغندا بينما امتنعت السفارة الإثيوبية في القاهرة عن منحنا تأشيرة الدخول.

كانت الرحلة حافلة بلحظات التوتر: عندما عبرنا مستنقعات الحدود الأوغندية وحطت جيوش ذباب تسي تسي الرهيب فوق سيارتنا. وعندما انساب قاربنا على سطح بحيرة فيكتوريا، تحت بصر التماسيح، وأشرفنا على شلالات ريبون. وعندما وقفنا فوق خط الاستواء، المرسوم على الإسفلت، وكنت أظنه خطا افتراضيا. وعندما شاهدنا التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق في الخرطوم. وعندما أوشكنا على دخول السجن في الخرطوم أيضا.

كنا قد طرنا من القاهرة إلى كمبالا، عاصمة أوغندا، عبر نيروبي. ومن كمبالا طرنا إلى الخرطوم. استقبلنا بمطارها الملحق الثقافي الفرنسي وغادرنا المطار على الفور دون الإجراءات المعتادة. سعدت بهذا الامتياز إلى أن جاءت لحظة المغادرة إلى القاهرة.

حملت أسماء البكري معها من مصر بضعة آلاف من الفرنكات الفرنسية للإنفاق على الرحلة. ولما كنا لم نتعرض للإجراءات المعتادة عند

الدخول فلم يتم تسجيل وجود هذه الفرنكات في حوزها. وعند الخروج سألها موظف المطار عما إذا كانت تحمل نقودا فأجابت ببراءة بالإيجاب وأبرزت فرنكاها. نحينا جانبا وبدأ التحقيق معنا. وجرى تفتيشنا بدقة.

كنت أحمل معي مجلدا كبيرا يضم مذكراتي عن الرحلة وملاحظات عديدة من قراءاتي وصورا ضوئية لفقرات من كتب ومقالات تتناول تاريخ النهر ودوله وحاضره السياسي والثقافي. وعلي رأس هذه المواد كانت هناك بيانات موقع CIA Fact book الذي أنشأته المخابرات الأمريكية على النت لخدمة السياح الأمريكان. وكنت قد طبعت البيانات الخاصة ببلدان نهر النيل من قبيل تعداد السكان، الطقس، نظام الحكم، المواصلات الداخلية، الخ.

كما كانت هناك صفحات من مجلة "الوسط" اللبنانية، عدد ١٢٩ بتاريخ ١٨-٧- ١٩٩٤ ، بعنوان بارز:" راسبوتين الخرطوم وبيوت الأشباح" ثم عنوان فرعي: "رئيس جهاز الأمن السوداني : لا صحة لمشاركة أجانب في تعذيب المعتقلين". وتضمنت الصفحات حوارا مع مواطن سوداني تعرض للاعتقال والتعذيب في أحد البيوت السرية المعروفة باسم "بيوت الأشباح" والتي أقامتها حكومة الإنقاذ الإسلامية.

***

ادعت أسماء أن الفرنكات تخص السفارة الفرنسية. وتم إيقاظ السفير الفرنسي (كنا في ساعة مبكرة من الصباح) وجرت مشاورات طويلة. ولحسن حظنا أن العلاقات بين فرنسا والسودان كانت تمر بلحظة ازدهار نادرة. كانت حكومة السودان الإسلامية قد أوت الإرهابي العالمي "كارلوس". ودفعها افتقادها للتأييد الدولي إلى تسليمه مخدرا للمخابرات الفرنسية. وأصبحت فرنسا الصُديق الوحيد تقريبا للنظام الإسلامي.

هكذا أمكن تسوية الموقف. سلمت الفرنكات إلى السفارة الفرنسية (استعادها أسماء البكري فيما بعد من السفارة الفرنسية بالقاهرة). وجري التجاوز عن محتويات حافظة أوراقي. وأطلق سراحنا فصعدنا إلى الطائرة التي انتظرتنا طول الوقت.

***

خلال الرحلة اكتشفت أن لكل منا– أنا وأسماء– رؤية مختلفة للفيلم المقترح، وللحياة كلها. نظرت أسماء إلى مشروعنا على أنه فيلم سياحي. وتجلت هذه النظرة بوضوح عندما انتهيت من إعداد السيناريو. ثم عندما قررت، بصفتها المنتجة، أنه لا حاجة بي للاشتراك في رحلة التصوير، أي أنه لا حاجة إلى السيناريو نفسه.

انقطعت علاقتي بالفيلم وفي ٧-٨-١٩٩٥ نشرت جريدة الأهرام أن الفيلم الوثائقي عن النيل الذي ينتجه التليفزيون الفرنسي قد استغرق تصويره ثلاثة شهور ويجري تحميضه تمهيدا لعرضه. وإنه تكلف ٣٠٠ ألف جنيه.

ولم أعرف بعد ذلك إذا كان قد تم عرضه. ولم أتلق ردا من شركة الإنتاج عندما استفسرت منها عن مصيره. كما لم أعثر على أي اثر له في سجلات هيئة SCAM التي تضم كافة التفاصيل الخاصة بالنشاط السينمائي الفرنسي، عندما ذهبت إلى مقرها بصحبة المخرج التونسي مصطفى الحسناوي. ثم أهملت الأمر تماما منشغلا بأموري الخاصة.

***

منذ عام ١٩٩٤، تاريخ كتابة السيناريو، وخلال السنوات الاثنين والعشرين التالية، انسابت مياه كثيرة في نهر النيل، ووقعت أحداث

وتغيرات هائلة على ضفتيه. اختفى زعماء وزالت سلطات، ونشأت دولة جديدة على الأقل في جنوب السودان، وقامت ثـورات منـها اثنتـان متتابعتان في مصر، وأقدمت إثيوبيا على بناء سد النهضة ليحتجز جانبا من المياه التي يزود بها النيل مصر والسودان. ولم يعد هذا السيناريو صالحا فأي فيلم يتم إعداده اليوم عن نهر النيل لا بد أن يعكس هذه التطورات.

ومع ذلك ستظل هناك أهمية ما لتوثيق أي مرحلة زمنية مر بها النهر "الخالد"!

صنع الله إبراهيم

٢٠١٦

سيناريو الفيلم الوثائقي

*** ١

الطريق الوعر الصاعد بين المزارع إلى جبال رونزوري. إنه طريق بلا نهاية. وهو يمر بخط الاستواء. تحف به نباتات وتعترضه منحدرات أودية يغطيها الضباب. ولا يكشف عن شيء سوى الطبيعة الملونة. صيحة شمبانزي. قرود. بين الحين والآخر تبدو من النباتات ملامح جدول. صوت هدير بعيد. مزارع الموز. سعفه يغطي سقوف الأكواخ. فتيات يحملن زكائب الغلال والحطب. غابات تبدو بها لمحات من جدول وخرير مياه إلى أن نصعد وتتجلى المياه تتدفق من الصخور الضخمة قادمة من قمم الجبال.

إنها جبال رونزوري الشاهقة، جبال القمر الأسطورية، بارتفاع ٥١٢٢ متراً فوق سطح البحر، الواقعة فوق خط الاستواء مباشرة، على الحدود بين دولتي أوغندا وزائير وبين اثنين من أشهر وأكبر أنهار العالم: النيل والكونغو.

قمم الجبال بتيجانها الستة المغطاة بالجليد.

إنها متوجة دائماً بالجليد والأنهار المتجمدة، وعندما يذوب تتدفع مياه الأمطار إلى أسفل في شلالات صاخبة إلى روافد ونهيرات تغذي عدة بحيرات ما تزال ثلاث منها تحمل أسماء أوروبية ذات رنين ملكي. النيل يبدأ هنا ثلجاً على ارتفاع ١٦٧٦٣ قدماً.

خارطة كاملة لنهر النيل تبين سيره من المنبع إلى المصب.

إنه من أطول أنهار العالم إذ يبلغ طوله أكثر من ستة آلاف كيلو متر ويمتد في استقامة عادية من الجنوب إلى الشمال، ماراً بعدة مناطق مناخية على عكس معظم الأنهار التي تنبع وتصب في منطقة مناخية واحدة، وهو أيضاً النهر الوحيد الذي استطاع أن يشق طريقه في شمال أفريقيا ويحمل جزءًا من المياه الاستوائية إلى البحر المتوسط وعبر قفار الصحراء الكبرى التي ينساب فيها مسافة ٢٧٠٠ كيلومتر بين العطبرة والبحر الأبيض دون أن يتلقى رافداً واحداً وهي ظاهرة فريدة إذ لا يوجد نهر آخر تمكن من الجري كل هذه المسافة دون أن تتبدد مياهه قبل أن يصل إلى البحر. وقد أمكن ذلك نتيجة عامل فريد هو أن للنهر عدة مصادر.

خارطة للبحيرات الثلاث جورج، إدوارد وألبرت تبين نزول الأمطار إليها من الجبال. وستلازمنا هذه الخارطة لنملأها تدريجياً بتفاصيل الشبكة المائية لنهر النيل.

لكن جبال القمر ليست إلا أحد المنابع المتعددة للنيل..

جنوب بوروندي. نبع هزيل يخرج من باطن الأرض. مبتدأ نهر كاجيرا. تل يعلوه هرم حجري صغير يحمل لوحة معدنية متآكلة عليها كلمتين: منبع النيل.

لم يعرف هذا المنبع إلا في عام ١٩٣٧ وأقيم هذا النصب في قرية روتانا، جنوب بوروندي.

على الخارطة نتتبع نهر كاجيرا مسافة ٥٠٠ ميل حتى يصب في بحيرة فيكتوريا.

من أقصى منبع للنيل، تجري المياه في نهر كاجيرا، الذي يرسم الحدود بين تنزانيا ورواندا ويصب داخل أوغندا في أقصى نقطة على حدودها الجنوبية.

مصب كاجيرا في بحيرة فيكتوريا. المقياس بالأرقام القريبة (أول إشارة إلى الرابطة التي تعقدها المياه بين الشعوب القاطنة على ضفتيه من المنبع إلى المصب. خارطة أهم محطات رصد تصرفات النيل من كتاب رشدي سعيد).

سلام وهدوء وسط طبيعة خلابة.

من الأرشيف: الجثث على الشواطئ.

هذا النهر الذي يستمتع صيادوه بصيد وفير وتشرف عليه قرى تتوسط أودية رائعة الجمال في أراضي قبائل عريقة هي التوتسي والهوتو، غطته الجثث فجأة في صيف ١٩٩٤ وسارت حوالي ٤٠ ألف جثة مع التيار مسافة مائة كيلومتر حيث بلغت بحيرة فيكتوريا حيث كان يتم انتشال حوالي ٥٠٠ جثة يومياً في شهر مايو.

فعندما بلغ موسم الأمطار من عام ١٩٩٤ أوجه في شهر أبريل وصارت مياه الأنهار متخمة بالتربة الغنية، انفجرت في سماء كيجالي الطائرة التي تقل رئيسي البلدين المتجاورين رواندا وبوروندي، معطية الإشارة لأكبر حمام دم شهدته أفريقيا المعاصرة.

من الأرشيف: مصرع رئيسى رواندا وبوروندي. المـذابح. فـرق الموت. السفارة الفرنسية أو الجنود الفرنسيون.

فلم تمض ساعة حتى كانت فرق الموت التابعة لقبيلة الهوتـو الحاكمة، والتي تدربت في الأصل على يـد الفرنـسيين، تجـوب الشوارع لتتصيد أبناء قبيلة التوتسي بل والمعتـدلين مـن الهوتـو أنفسهم.

من الأرشيف: آلاف الهاربين من وجه الرعب الدموي.

خلال ٢٤ ساعة تدفق ربع مليون شخص من التوتسي والهوتو الذين خشوا انتقام التوتسي إذا استولوا على العاصمة عبر الحـــدود إلى تنزانيا خالقين مدينة جديدة هي ثاني أكبر مدن البلاد.

من الأرشيف: قبور جماعية للجثث الملقاة في الطـرق أو تطفـو فوق سطح الأنهار.

مات في القتال حوالي نصف مليون رواندي خلال شهر. وبعد شهر آخر كان أكثر من مليوني رواندي قد هجروا منازلهم وتجمعوا في معسكرات حيث أصبحوا ضحايا للكوليرا والتيفود والدوسنتاريا. قدرت مجلة تايم أن أكثر من نصف سكان رواندا الذين لا يبلغـون العشرة ملايين قد قتل أو هجر منذ أبريل حتى منتصف يونيو.

معالم قرية كاسانسيرو: المطعم الصغير، الفندق في العشة، سمك السردين مفروشاً على الأرض، الشاحنات. البؤس.
خارج القرية يصعد الطريق دائرياً بين هضاب خضراء. أودية زراعية رائعة الجمال. طبيعة ساحرة وملونة.
فجأة: نتوقف أمام تل صغير عليه لوحة تقول: هنا دفن ٢٨٢٧ قتيلا ضحايا النزاع الرواندي في أغسطس ١٩٩٤.

كيف تراكم هذا القدر من الحقد داخل هذا البلد الصغير؟ الأوروبيون الذين دخلوا رواندا منذ قرن وجدوا بلداً يحكمه أصحاب الماشية الطوال القامة من التوتسي، بينما كان الهوتو الأكثر سوادا وامتلاء يفلحون الأرض. ولم يكن هناك عداء بين الاثنين إلا بعد أن جاء النظام الاستعماري. في البداية الألمان ثم البلچيك الذين احتضنوا التوتسي ودعموا سيطرتهم كعملاء لهم في حكم الهوتو ومنحوهم الامتيازات (طول معين كشرط للالتحاق بالمدرسة!) فثار الهوتو في ١٩٥٩ واضطر البلچيكيون للتخلي عن عملائهم وتراجعوا تاركين الأقلية تحت رحمة الأغلبية. وفر آلاف التوتسي إلى أوغندا حيث انتظروا ثلاثين سنة فرصة استعادة سلطتهم. وعندما أعلن استقلال رواندا في ٧ يوليو ١٩٦٢، كانت أسس المذبحة القادمة قد وضعت. فقد فرضت للحكومة الهوتية على الجميع أن يحملوا بطاقات عنصرية، وجرى الحديث عن وضع التوتسي في مناطق خاصة. وعندما تدهور وضع البلاد التي حكمها منذ عام ١٩٧٣ أحد الديناصورات المكروهين في وسط أفريقيا، غزاها التوتسي من أوغندا وشنوا حرباً أهلية ضد الهوتو

المدعومين عسكرياً من فرنسا، وتوقفت في أغسطس ١٩٩٣ باتفاق يتيح لهم الاشتراك في السلطة. لكن المتشددين من الهوتو المتمثلين في الحرس الجمهوري لم يستسلموا وخططوا في عنايـــة حتـــى أن الكثيرين يعتبرونهم مدبرو مصرع الرئيسين.

بحيرة فيكتوريا.

أكبر خزان لنهر النيل، وأكبر بحيرة في أفريقيا، وثالث أكبر بحيرة في العالم. وتتقاسم شواطئها ثلاث من أكبر دول شرق أفريقيا: أوغندا وتنزانيا وكينيا. وصفت بأنها مرآة هائلة للشمس الأفريقية القوية. يمكن مشاهدة النظام الإقليمي للنيل (من مصب كاجيرا إلى مخرج جينجا) الذي ظل عصوراً چيولوچية طويلة منفصلاً عن بقية الأجزاء ولم يتصل بها وتتجمع كلها في نهر واحد مترابط إلا منذ ٢١ ألف سنة فقط. فهو أحدث أنهار أفريقيا جغرافياً وأقدم أنهار العالم كله تاريخياً.

خزان أوين.

لوحة منبع النيل. هنا تنتهي بحيرة فيكتوريا ويبدأ نيلها.

انتهى بناء خزان أوين في سنة ١٩٥٤ واتفقت دول النهر على نصاب معين من المياه لكل منها ويشرف ممثلون لها على مراقبة صرف المياه.

النيل يجري حتى شلالات مابازيجا (مورشيسون).
المياه تتخبط في غضب بين الصخور السوداء الضخمة مطلقة رذاذاً عالياً ومنحدرة في صخب.

هنا يسقط النيل من علو أربعين متراً في زبد وصخب ويجري حتى الطرف الشمالي من بحيرة ألبرت التي أطلق عليها ديناصور أفريقي آخر اسمه فأصبحت تدعى بحيرة موبوتو سيسي سيكو، ويخرج منها نيلاً متوحداً لأول مرة.

نيل فيكتوريا العريض وجدران الشواطئ التي حفرت فيها عوامل التعرية تماثيلا.

تماسيح سمينة بلون البرونز نائمة في النهر بأفواه فاغرة عكفت طيور الخدمة على تنظيف أسنانها.

صمد التمساح منذ ٢٠٠ مليون سنة لعصور الثلج وتحرك القارات رغم انقراض أقاربه من الديناصورات. خجول. يختفي في غمضة عين ويقضي وقته راقداً يتشمس فاغر الفاه وفجأة يتحرك في سرعة البرق. يتراوح أحجام أفراده من ثلاثة أقدام إلى ٢٥ ومن عدة أرطال إلى طن، بعضها يعيش مائة سنة. تمساح النيل ماكر بحيث يفلت من الإنسان وقوي بحيث يسقط جاموس النهر ورقيق بحيث يهشم بيضه ليطلق سراح الصغار. يتغذى على الغزال والجاموس بل والإنسان، لكن الطعام الأساسي هو الضفادع والسلاحف والسراطين والسمك. لا يمضغ وإنما يكسر ويقضم ويبتلع وهو يبتلع أيضاً الأحجار التي تحتك بعضها ببعض داخل معدته فتساعد على طحن الطعام. يرعى الأب والأم الصغار عندما يفقس البيض. عرف أياماً مجيدة عندما كان المصريون القدماء يضعون أساور ذهبية في أرجله. وروى سترابو الجغرافي الإغريقي أنه شاهد الكهنة يفتحون فم تمساح مقدس ويضعون فيه اللحم المشوي والكعك ثم يصبون النبيذ الممتزج بالعسل.

قطعان فرس النهر.

أكبر ثدييات المياه العذبة. قد يصل وزنه إلى ثلاثـــة أطنـــان. ومع ذلك خفيف الحركة. يغطس لمدة أربع دقائق ثم يصعد ليتنفس. وخلال ذلك يمكنه أن يغلق أذنيه وأنفه. الذكر يعيش مع بضع إناث. قدسه قدماء المصريون واعتبروه إلهاً للحمل.

لوحة سقارة لأم فرس نهر تلد صغيراً يتلقفه تمساح.

أسراب الطيور.

فوق هؤلاء عالم من الريش: كل الطيور التـــي تعبـــر شـــمال أفريقيا وبعضها من أوروبا، تتجمع هنا ويغطـــي صـــراخها علـــى ضجيج المياه.

أبو منجل المقدس.

جنة من الطيور الغريبة والملونة يسهل وسطها تمييــز طــائر أبيض وأسود، يتأمل ما حوله في رصانة، ويسير محنـــي الــرأس، كما لو كان يفكر، وهو في الغالب يبحث عن دودة يلتهمها، ثم ينشر في بطء- على شكل قوس- أجنحته المخططة بالشرائط الــصفراء ليحلق في رشاقة: إنه أبو منجل الذي عبده المصريون القدماء فـــي الطرف الآخر من النهر بعد أن أعطوه دور إلــه الحكمــة وســط شبكتهم المعقدة من الآلهة ذات الوظائف المتعددة. لكن لا أثــر لـــه بمصر الآن.

صفوف من نباتات البردي. أكواخ ذات سقوف مخروطية من أعواد البردي. نساء في ملابس ملونة يأخذن مياه البحيرة للغسيل والطهي ويحملن الأطفال على ظهورهن.

إن أشياء كثيرة هنا تذكر بمصر القديمة مثل نباتات البردي التي اصطنع منها المصريون القدماء ورقاً للكتابة.

قطعان البقر الهزيل بالقرون الكبيرة المقوسة في نصف دائرة حيث كان يقبع آمون.

وهذه البقرة ذات القرون المقوسة كان الفراعنة يعبدونها ويضعون قرص الشمس الذي يرمز إلى الإله رع بين قرونها، فتصبح إلهة للفن والجمال والموسيقى.

البقرة المقدسة عند قدماء المصريين.

الطريق من عنتيبي إلى كمبالا، عاصمة أوغندا. التربة الحمـراء. تلال النمل الأبيض. قمائن الطوب الأحمر. دكاكين وأكشاك صـفيح وخشب أمامها نساء تغسل في طشوت بلاستيك. امـرأة بماكينـة حياكة. أطفال يحملون جراكن الماء على رؤوسهم. إعلانات الكوكا وبنك باركليز، بروك بوند وكولجيت وبنزين توتال. إعـلان: هـل تريد أن تصبح غنياً؟ الرجال. النساء. ملابسهن. منـصات البيـع على جانبي الطريق: في البداية الموز الأخـضر بكميـات كبيـرة والذي يستخدم في الطهي، ثم على مراحل تظهـر المـانجو ثـم الطماطم ثم البطاطا ثم دكاكين لكل شيء. دخان العادم الكثيف من الشاحنات. الخضرة الوافرة.

نحن هنا في قطعة من الجنة التي وعد بها الرب المؤمنين من عباده على لسان رسله. هنا صيف دائم مـن غيـر قـيظ النهـار ورطوبة الليل، يجلب على مدار السنة درجة واحدة لا تتغيـر مـن الشمس والمطر فتثمر الأرض من تلقاء نفسها. إنها أوغنـدا التـي صارت أغنى وأبرك من كل جيرانها بسبب الطقس الكـريم، ولأن حظاً سعيداً أبقى الرجل الأبيض بعيداً عن أراضيها حتى منتـصف القرن التاسع عشر، ولم يسمع زنوجها «المتوحـشون» لأول مـرة عن الجنة الأخرى المدونة في الكتب المقدسة إلا من SPEKE فـي لقائه مطلع عام ١٨٦٢ بآخر ملوكهم موتيسا الـذي سـجله رسـماً زميله GRANT.

رسوم جرانت من كتاب النيل الأبيض.

سبيك وجرانت يذهبان إلى جنجا لرؤية مبدأ النيل.

وهو اللقاء الذي كان خطوة حاسمة في نتيجتين: اكتشاف منابع النيل، وبداية الزحف الأوروبي علـــى أفريقيـــا: إنجلتـــرا وفرنـــسا وألمانيا والبرتغال وشخص واحد هو ليوبولد ملك بلچيكا. فـــسرعان ما كانت البعثات التبشيرية الإنجليزية والفرنسية تتقاتل مـــن أجـــل الاستحواذ على روح الأفريقي الأسود، لأن الإيمان بإله أبيض كان ضرورياً لرفع أسهم شركات القطن، الذي كان مخططاً لأوغندا، بل وكل بلاد حوض النيل وواديه، أن تصبح مورداً رئيسياً له. وعندما تمرد الملك موتيسا فرضت بريطانيا سنة ١٨٩٤، منذ مائـــة ســـنة بالضبط، الحماية على بلاده بعد أن أدمجتها في كيان جديد يتـــألف من أكثر من أربعين جماعة متباينة لغوياً وثقافياً، واضـــعة بـــذلك بذور الاقتتال والفتن، وقدمت للأهالي خدمات صـــحية ومـــدارس، وفرصة العمل في قيادة السيارات، كما علمـــتهم تـــدخين الـــسجاير الإنجليزية وشراء القبعات ومصابيح الجيب وزجاجات الويـــسكي، وحصلت في مقابل ذلك على أرض خصبة، تصدر الـــبن والـــشاي إلى جانب القطن، تكمل طرقها الجوية والتجارية. كما حصلت على ٢٠٠,٠٠٠ رجل (من تعداد ثلاثة ملايين وقتهـــا)، شـــاركوا فـــي الحرب العالمية الأولى ثم في قتال الجيران الألمـــان فـــي شـــرق أفريقيا. ولهذا لم يكن من المستغرب أن يلقبها ونـــستون تـــشرشل بلؤلؤة النيل.

طائر مارابوت الشره الذي يأكل بقايا الجثث واللحم فوق المنـــازل والأشجار وصوته المزعج وشكله المخيف.

كامبالا: الميكروباصات. ضابطات المـرور. الـشرطة المـسلحة بالآليات. رجال وشبان واقفين لا يفعلون شـيئاً أو جالـسين فـي تجمعات قليلة صامتين أو يلعبون الورق أو الـدومينو. المبـاني الإدارية الحديثة. صناديق القمامة في الأركان ومحتوياتها متناثرة وهناك من يقلب بينها بحثاً عن شيء ذي فائدة.
فندق الشيراتون: الرواد المعهودون: امرأة وحيدة تشرب بيـرة، أبناء الأغنياء يلعبون البلياردو، أوروبيون يقرأون الصحف. قنـاة س إن إن في التليفزيون.

الخارطة: مثلث لويرو. (مجلة ناشيونال جيوغرافيك).

غير بعيد من شمال العاصمة كمبالا منطقة زراعية تعرف باسم مثلث LUWERO كانت محظورة على الأجانب، والصحفيين منهم بوجه خاص في بداية الثمانينيات. وفي عام ١٩٨٨، أصبح من الممكن مشاهدة منصات بيع الموز والطماطم على جانبي الطريق الرئيسي الذي يمر بها، وقد رصت فوقها جماجم وعظام جمعت من حقول القتل في أراضي قبيلة BAGANDA التي ذبحها جيش ميلتون أوبوتي بين عامي ١٩٨٠ و١٩٨٥ وهي الفترة التي انطلق فيها رجاله، وأغلبهم من أبناء الشمال، يغتصبون وينهبون لجمع رواتبهم، وقتلوا خلالها أكثر من نصف مليون شخص، عذب أكثرهم بوحشية بالغة قبل أن يضربوا حتى الموت بالهراوات، كما تصور الرسومات الموجودة إلى الآن على جدران السجون. بعض الرسوم الأخرى تصور طريقة متميزة في التعذيب هي سكب بلاستيك منصهر من جركن على وجه الضحية.

من الأرشيف: فرحة الاستقلال. موبوتي يزيح الستار عن تمثال الاستقلال.

عندما حصلت أوغندا على الاستقلال من بريطانيا سنة ١٩٦٢، وسط المواكب والاحتفالات والموسيقى التقليدية، لم يكن شيء من كل هذا يبدو في الحسبان، فقد بدا المستقبل وردياً، بسبب الإمكانيات المتوفرة للبلاد التي تصدر البن والقطن والشاي ولديها صناعة نسيج واستخراج نحاس وقوة كهربائية تكفي أمة أكبر وأكثر تصنيعاً.

من الأرشيف: إمكانيات البلاد الاقتصادية.

لكن الجميع كانوا واهمين. فكيف يمكن ببساطة التخلص من تركة قرن من الاستغلال الاستعماري؟ لقد تم رسم الحدود بين الدول الأفريقية بواسطة الدول الاستعمارية وشغلت معظم الدول الأفريقية نتيجة ذلك مساحات إقليمية أوسع كثيراً من حدود المساحات أو الأقاليم التي تشغلها القبائل المحلية. وبعض هذه الدول يتكون من شعوب مختلفة عرقياً وعقائدياً وتاريخياً.

خارطة لقبائل شرق أفريقيا والحدود الدولية.

وكان تذمر زراع القطن الأوغنديين من استغلال أصحاب المحالج الأجانب في الفترة الاستعمارية يواجه بقوة شرطة وجيش أوغندية حرصت بريطانيا على أن تقصر الخدمة فيها على أبناء الشمال وهي منطقة أقل ازدهاراً من الناحية الاقتصادية، وجاء منها أول رئيس وزراء للبلاد هو ميلتون أوبوتي الذي برز كأحد الوجوه الشابة لحركة عدم الانحياز، الذين يرفعون شعارات «ثورية» على المستويين السياسي والاجتماعي.

ثلاثة من أبطال الحلم الأفريقي: كنياتا ونيريري وأوبوتي.

لم يلبث أوبوتي، في محاولة لمركزة الدولة، أن تربع على رأس جهاز إداري وبوليسي من أبناء جلدته الشماليين الذين أقبلوا يعوضون حرمانهم الطويل على حساب بقية أبناء البلاد ونشروا فساداً لم ينته عندما استولى على الحكم في انقلاب عسكري سنة ١٩٧١ شمالي آخر ورقيب سابق في جيش الإمبراطورية التي غربت عنها الشمس، هو عيدي أمين الذي أطلق عصاباته (جنود سكارى في ملابس غير مهندمة وأحذية مفكوكة الأربطة) تنهب وتغتصب وتقتل وتضرب حتى الموت ٣٠٠,٠٠٠ أوغندي بينما أمتع الصحافة العالمية بتصريحاته عن قواه الجنسية، عارضاً خدماته في هذا الصدد على ملكة بريطانيا.

من الأرشيف: عيدي أمين يحمل العلم في الجيش الإنجليزي، يلعب الكرة، يتزوج أربع، يخطب ويثرثر، يرقص، ثم يقتل.

جثث ألقت بها المياه على شواطئ بحيرة فيكتوريا في مايو ١٩٧٣، القتل بالمطرقة، مكتب المباحث في نكاسيرو ١٩٧٩.

يمنع الميني جيب وأدوات التجميل للسيدات، يجبر البيض على حمله فوق رؤوسهم، يجمع التبرعات لمساعدة إنجلترا في أزمتها الاقتصادية، مع موبوتو وبوكسا، ملأ صدره بالنياشين.

لم يتمكن أمين، رغم «قواه» الواضحة، من البقاء في الحكم طويلا، وهرب عام ١٩٧٩ إلى المملكة السعودية أمام قوات المعارضة المؤيدة من الجيش التنزاني...

من الأرشيف: أمين في منفاه بالسعودية.

وترك خلفه خزينة خاوية و ٣٠٠٠٠٠ أوغندي قتيل ونظام أصبح عنف العسكر جزءًا لا يتجزأ من تركيبته.

فقد بدأت التصفيات المتبادلة بين القبائل وتحول نقص في المواد الغذائية في سبتمبر ١٩٨٠ إلى مجاعة راح ضحيتها ٣٠٠ ألف أغلبهم من قبائل الرعاة والمحاربين في شمال شرق البلاد.

من الأرشيف: مذابح أوبوتي.

في الانتخابات العامة التي جرت في ديسمبر ١٩٨٠، فاز حزب أوبوتي وعاد من منفاه ليحكم من جديد متحالفا مع المؤسسة العسكرية وبدأ مسلسل الانتقام الدموي والفساد بمستوى فاق ما فعله أمين وجابت فرق الموت أنحاء البلاد ذابحة نصف مليون نسمة.

من الأرشيف: لافتة «الموجندي الطيب هو الميت». رسوم تمجـد عمليات التعذيب: إسقاط بلاستيك منصهر من جركن فوق وجه الضحية، أو الضرب بهراوات خاصة فوق الرأس حتى الموت.

وطرد نصف مليون آخرين إلى حدود السودان وزائير لم يعد منهم إلا النصف عندما سقط أوبوتي في ١٩٨٥ علـى يـد جـيش المقاومة الوطني بزعامة يوري موسيفيني الذي أعلن عزمه علـى القضاء على القبلية.

شارع كبالاجالا بالليل: الطريق إليه مظلم فلا أنوار بالليل. زحام السيارات، الجموع المنتشرة على المقاهي. المطاعم ذات التراسات حيث الأجانب والباعة الجوالين للأقنعة والتماثيل الصغيرة للأفيال.

إن كمبالا اليوم تنعم بالسلام والهدوء بعد قرابة العشر سنوات من حكم موسيفيني. وسكانها يبدون جميعاً في صدر الشباب ومن النادر أن ترى بينهم عجوزاً واحداً وهو أمر مفهوم. وهم يستمتعون بحياة ليل وادعة في وسط المدينة الذي تضيئه أنوار السيارات وحدها، متناسين لبضع ساعات الأخطار المحدقة بهم بدءًا من المذابح العنصرية إلى سوء التغذية والملاريا والحمى الصفراء التي تسببها ذبابة تسي تسي المميتة وأخيراً طاعون العصر..

بوستر الإيدز في مكتب البريد.

فأوغندا التي افترستها حرب عنصرية متقطعة على مدى عشرين عاماً كلفتها مليون قتيل، يتهددها الآن خطر الإيدز، الذي يصيب نفس الفئة العمرية التي تصيبها الحرب وهي بين ١٨ سنة و٤٠، وينتقل أساساً عن طريق العلاقات الجنسية ويصيب الأهالي بمرض «الهزال». وحسب تقديرات ١٩٨٨ غير الرسمية فإن واحد من كل خمسة بالغين نشطين جنسياً في العاصمة يمكن أن يكون مصابا. وتصل النسبة في بعض الأماكن وخاصة على الشاطئ الغربي من بحيرة فيكتوريا قرب الحدود التنزانية إلى ستين بالمائة. وكل منزل تقريباً في الريف القريب من بلدة KOYOTERA فقد واحداً من سكانه أو سيفقده في القريب.

مستشفى مولاجو في كمبالا.

أما المستشفيات فقليلة (طبيب لكل ٢٢ ألفا من السكان) والجنازات يومية وغالباً متعددة. وفي كمبالا تستقبل مستشفى مولاجو يومياً خمس مرضى جدد بالإيدز. وفي إحصاء أجرى على مستشفى آخر سنة ١٩٨٦، تبين أن نسبة الإصابة بين النساء الحوامل هي سبع بين كل خمسين. وهي نفس النسبة في الرجال المتبرعين بالدم.

معهد أبحاث الفيروسات في عنتيبي.

سيارات أخذ عينات الدم.

إن ما يضاعف من خطورة الموقف هو بساطة العلاقات الجنسية وسهولتها. وتقوم الحكومة بحملة واسعة من التوعية بين الأهالي الذين دفعتهم الظروف المأساوية إلى التساهل في شأن المبادئ الأخلاقية للدينين اللذين يؤمنون بهما، المسيحية والإسلام، ونشدان السلوى في نشاط غير سياسي، مجلب للذة وإن تكن وقتية.

*** ٢

خارطة: النيل يدخل بحيرة ألبرت ثم يخرج منه.

ما أن يخرج النيل من بحيرة ألبرت، حاملاً اسم صاحبها المحظوظ، الذي يحاول ديناصور آخر كبير يحتكم على النصف الغربي من البحيرة، أن يحل محله، بحيث يصبح اسمها «بحيرة موبوتو سيسي سيكو»، حتى يتبعثر في متاهات من القنوات والبحيرات والبرك المتعددة حتى يبلغ «الحدود» السودانية.

الخارطة: الحدود الشمالية لأوغندا مع السودان.

إنه المصطلح الذي سنجده على الخرائط ولـــن نجــده علـــى الطبيعة، لا لأي سبب جغرافي، وإنما لــسبب أصـــبح الآن مألوفـــاً لدينا.

من الأرشيف: مخيمات اللاجئين والنازحين.

فمخيمات اللاجئين من السودانيين الجنـوبيين الهـاربين مـن الحملات العسكرية لحكومة الخرطوم تنتشر على جـانبي الحـدود السياسية التقليدية بحيث تكاد تخفي كل أثر لها.

خارطة السودان.

من الأرشيف: مونتاج من الصور للقرى والقبائل والرقص.

فلعنة مضاعفات التخلف قد أصابت أيضاً أكبر بلد في أفريقيا التي تمتد مساحتها ٢٥٠٠٥٨١٣ كيلومتر مربع وتضم ٥٠٠ قبيلة يتحدث أفرادها أكثر من مائة لغة، وعدة بيئات طبيعية متمايزة (سافانا وصحراء وجبال ومستنقعات هائلة) وألوان من التقاليد المتباينة والأغاني والرقص. فبعد أن حصلت على الاستقلال سنة ١٩٥٦، سقطت في شراك حرب أهلية استمرت طيلة ١٧ سنة راح ضحيتها نصف مليون قتيل و ٧٥٠,٠٠٠ لاجئ (انتقلوا إلى مناطق الحدود الجنوبية بينما استقبلت السودان على الحدود الشرقية ٤٠٠,٠٠٠ إثيوبي هارب من وجه الجنرال الماركسي).

الخارطة: الحدود الشرقية للسودان ثم الشمال والجنوب.

ففي الشمال، حيث يعيش أغلب السكان البالغ عددهم ٢٦ مليونا، خلق الإسلام واللغة العربية وحدة معينة، أعطت لسكانه فرصة السيطرة على المقدرات الاقتصادية والسياسية للبلاد. لكن الجنوب الأفريقي يتألف من قبائل عديدة مختلفة لكل منها لغتها وعاداتها.

من الأرشيف: جعفر النميري، تصفية الحزب الشيوعي السوداني.

وتسببت هذه الحرب في انقلابات عسكرية متتالية جاءت في ١٩٦٩ إلى السلطة بالجنرال جعفر النميري الذي دافع عنها في استماتة قادته في اتجاهات متباينة فبرز بعد سنتين وهو يتابع، وزجاجة ويسكي لا تفارق يده وفمه، التصفية الجسدية لزعماء الحزب الشيوعي، الذي كان أكثر الأحزاب العربية جماهيرية.

من الأرشيف: الاتفاق بين النميري وزعماء الجنوب.

وفي السنة التالية، ١٩٧٢ تمكن من إنهاء الحرب الأهلية بتقديم بعض التنازلات إلى الجنوبيين، تضمنت إشراكهم في السلطة، ومنح المناطق الجنوبية حكماً ذاتياً، لكنه لم يلبث أن أشعلها من جديد بعد عشر سنوات، عندما اكتشف أنه بدد ثروة البلاد، واحتاج إلى سند شعبي لديكتاتوريته، فأعلن تطبيق الشريعة الإسلامية.

من الأرشيف: النميري يعلن تطبيق الشريعة الإسلامية.

إن التطبيق الحرفي للشريعة الإسلامية أمر شديد التعقيد ويمكن أن يتضمن أمراً مستحيلاً وهو تأمين أفراد الشعب تأميناً تاماً ضد الجوع والمرض، ولهذا اقتصر النميري على ما يسمى بالحدود أو العقوبات وهي قطع يد السارق ورجم الزاني وتحريم شرب الخمر. وأثار هذا غضب الجنوبيين الذين يتألفون من مسيحيين ووثنيين، ففضلاً عن أن مشروباتهم الوطنية هي من الحبوب المخمرة، وأنها كما في حالة الأوغنديين، بعض ما تبقى لهم من أوجه محدودة للتسرية عن النفس، فإنهم كانوا يعرفون جيداً غرام النميري بالزجاجة العتيقة.

من الأرشيف: حالات تطبيق الشريعة الإسلامية (قطع يد .....).

وخيل للأخير انه قادر على سحق مقاومتهم، لكنه لم يــتمكن، فقد أصبح لهم جيش قوي يقوده كولونيل سابق في الجيش السوداني هو جون جرنق.

من الأرشيف: جون جرنق.

إن جرنق حائز أيضاً على درجة الدكتوراه في الاقتصاد مــن جامعة IAWA الأمريكية. أما موضوع الرسالة فهو قناة جونجلي.

خارطة قناة جونجلي.

من بين ما تسببت فيه هذه الحـرب مـن أضـرار، تعطيـل مشروع قناة JONGLI بطول ٣٦٠ كيلـومتر والتـي كـان مـن المفروض أن تتيح إنقاذ عشرين بالمئة من مياه النيل الضائعة فـي مستنقعات السُد، وثلث المياه التي يبـددها التبخـر فـضلاً عـن استصلاح ٤٠٠ ألف فدان من الأراضي الزراعية. ولا تقف أهمية القناة عند هذا الحد، فمشروعها تنموي يشمل مستشفيات ومـدارس ونقط بوليس. وخلال فترة العمل الابتدائيـة اختفـت المـستنقعات وأمراضها المتوطنة.

من الأرشيف: تطورات العمل في قناة جونجلي.

والذي حدث أن ثوار الجنوب اعتبروا المشروع محاولة جديدة من الشمال لاستغلالهم فأغاروا على موقع العمل في ١٩٨٣ عـدة مرات حتى أجبروا الشركة الفرنسية .C.C.I على وقف العمل.

مقابلة مع الدكتور منصور خالد.

نائب رئيس لجنة الأمم المتحدة للبيئة منذ بداية الثمانينيات ووزير خارجية السودان منذ ١٩٧١ حتى ١٩٧٩ مع النميري وأحد مهندسي اتفاق أديس أبابا في ١٩٧٢ الذي أنهى ١٦ سنة من الحرب الأهلية. اختلف مع النميري عندما ألغى النميري الاتفاق في ٧٩ وأعلن نفسه إماماً فترك الوزارة ثم انضم للحركة الجنوبية في ١٩٨٤.

**** دكتور خالد.. أنت مسلم، عربي، ومن أبناء الشمال، فماذا تفعل في قيادة حركة التمرد في الجنوب؟**

* المشكلة ليست جنوب وشمال كما أنها ليست إسلام ومسيحية. وليست ضد العربية فاللغة العربية حلقة التواصل وجرنق يخاطب جنود الجبهة باللغة العربية. فما يعاني منه الجنوب الآن تعاني منه مناطق أخرى مثل دارفور والنوبة وأغلب أهلها مسلمين وبالتالي فهدفنا هو تحرير كل هذه الأقاليم من هيمنة القوى السياسية المتخلفة للشمال النيلي.

** هناك من يتهمونكم بأنكم تدعون لانفصال الجنوب؟

* أخذت القضية بعداً جديداً بعد وصول الجبهة الإسلامية الحاكمة إلى الحكم. فهي تملك أجندة خاصة تقوم على الأسلمة القهرية لكل السودان. هذا الاستقطاب الحاد جعل استحالة وجود أرض للوفاق فبرزت تيارات في الجنوب تدعو للانفصال أي باستحالة الاتفاق مع الشمال. بينما التيار الرئيسي يرى أنه من الممكن بالتعاون مع القوى السياسية الأخرى أن يتحقق سودان جديد يمكن أن تتعايش فيه الديانات والأقليات المختلفة في ظل دستور جديد وإعادة توزيع السلطة والثروة. لكن موقف حكومة الخرطوم لا يسمح بأي حل سلمي للقضية.

**** ما هو الوضع الآن بعد عشر سنوات من النضال؟**

* لأول مرة الآن كل القوى السياسية في السودان وليس نحن وحدنا تتحدث لغة جديدة. لأول مرة الحديث عن هوية سودانية لها أبعاد عربية وإسلامية أخرى. وبدأ الحديث عن ضرورة اللامركزية وإنهاء هيمنة الخرطوم.

**** لكن الأنباء تتحدث عن انتصارات لحكومة الخرطوم واستعادتها لبعض المدن؟**

* حققت حكومة الخرطوم بالفعل بعض الانتصارات في السنتين الأخيرتين تتمثل في إعادة احتلال بعض الحاميات لكن ظلت كل واحدة منها محاصرة بقواتنا. إن الحركة تسيطر اليوم على كل إقليم غرب الاستوائية وأجزاء من شرق الاستوائية وبحر الغزال وهي منطقة بحجم ثلاث دول أفريقية مجتمعة هي أوغندا ورواندا وبوروندي. وفي منتصف ١٩٩٤ عقدت الحركة مؤتمرها الأول الذي فصل بين السلطة العسكرية والإدارية وأقيمت إدارات مناخية في هذه المناطق.

من الأرشيف: جون جرنق يتحدث في احتفال لقواته بمناسبة يــوم المرأة العالمي.

إن الحركة الشعبية التي يقودها جرنق تحاول أن تقدم نموذجــاً مستنيراً ومتقدماً لصورة المجتمع الذي تبغيه للــسودان. ولا يخفــي زعماء الحركة شعورهم بالمرارة تجاه موقف بعض الدول العربيــة والأفريقية وموقف فرنسا التي يتهمونها بممالأة حكومة الخرطــوم وتزويدها بصور الأقمار الصناعية لمواقع قواتهم على أمل استئناف التنقيب عن البترول في مناطق الامتيازات الضخمة التي حــصلت عليها في الجنوب.

**** منصور خالد في المقابلة:**

فرنسا لها موقف غريب، فهي تمالئ نظام الـسودان وتدعمـه بصورة مباشرة وغير مباشرة.

خارطة لمناطق الحركة الشعبية والقصف الشمالي.

من الأرشيف: طيور الكركي بأطرافها النحيلة وأعناقها الرفيعة ورؤوسها الصغيرة وسيقانها الدقيقة التي تستخدمها بالتتابع فتقف بالساعات فوق قدم واحدة معتمدة على ركبة الساق الأخرى.

المشهد المألوف في هذه المنطقة من المستنقعات (التي يزدهر بها ٦٣ نوعاً من البعوض).

من الأرشيف: رجال القبائل النيلية في نفس الوضع وخاصة الدنكا.

ال DINKA الذين ربما هم أطول شعوب العالم قامة وأسودهم وجوهاً، وأكثرهم تقدماً- في رأى البعض- لأنهم يتركون لنسائهم كامل الحرية في العلاقات الجنسية خارج الزواج.

من الأرشيف: نساء القبائل النيلية.

وتمارس قبائل أخرى في المنطقة هذه الحرية لكنها تختلف في درجات الدهاء، فبينما يعاقب ال BANJORO الخيانة الزوجية بسطل من البيرة يشربها الزوج المخدوع، فإن ال SHILLUK يفرضون على المرأة أن تعترف بعد مولد أول طفل لها بمن نامت معه إضافة إلى زوجها، ويتعين على كل واحد من هؤلاء أن يكفر عن ذنوبه بأن يقدم ثوراً إلى الزوج.

من مجلة ناشيونال جيوجرافيك. الشيلوك وملكهم.

إن الشيلوك الذين يميزون أنفسهم بصف من الندوب البارزة على شكل حبات الخرز يحدثونها في جباههم، يعيشون في إفريز من القرى على الشاطئ الغربي شمال السُد، ويزرعون الذرة الحلوة ويرعون الماشية. ومازال لهم ملك مقدس، مرهوب الجانب، لا شأن له بحكومة الخرطوم، هو تجسيد للسلف الأسطوري للقبيلة NYIKANG. وعندما يموت الملك يتم انتخاب واحد جديد يجب أن يكون خالياً من العيوب، حتى لو كانت سنا مكسورة، لأن سلامته الصحية ترمز للقبيلة كلها. وحتى سنة ١٩٨٥ كان الملك الثالث والثلاثين AYANG ANELKUR يعيش في قريته الملكية المؤلفة من أكواخ صغيرة على مبعدة ثلاثة أميال من النيل. يجلس في فناء مفتوح متربعاً فوق منصة صغيرة مغطاة بجلد فهد، حوله مستشاروه، ويحمل في يده اليمنى منشة للذباب وفي الأخرى صولجانا، وعلى الأرض إلى جواره جهاز ترانزستور كبير يصدر منه ضجيج موسيقى الروك الأفريقية، وكوم من الشرائط الموسيقية، ومبصقة! فهو كبقية رجال القبيلة يتعاطى المُضغة، لكن يحرم عليه أن يلمس بصاقه الأرض. وبعيداً عن مرمى بصقته، ينحني الرعايا من أصحاب الالتماسات في خضوع ويلمسون الأرض بأطراف أصابعهم.

من الأرشيف: النوير. الأكواخ، شجرة آدم. الزينة.

بالقرب من حافة الصُد أيضاً تقع أكواخ ال NUER التي تشبه قطرات من الشكولاتة السائلة، بين نخلات الدوم وحقـول الـذرة. ويتميز أصحابها بالرشاقة والجمال ولهذا يسيرون عرايا ويتبـاهون بأجسادهم كما يفعل الأوروبي بملابسه لكنهم على عكسه لا يتعرون من أجل اكتساب اللون الأبيض. وعلى عكسه أيضاً يعرفون المكان الذي خلق عنده آدم، إلى جوار شجرة معينة لديهم. وفـضلاً عـن مستوى جمالهم الواضح، يميزون أنفسهم عـن القبائـل الأخـرى بالندوب المعهودة التي تغطي الوجه كلـه حـول العينـين والفـم والوجنتين في صفـوف منتظمة.

من الأرشيف: فتاة من قبيلة مونداري.

ما أن تصل الفتاة من قبائل MONDARI إلى سن البلوغ. حتى تحيط سرتها بندوب بارزة على شكل العنكبوت أو نجمة معقدة التكوين متعددة الأفرع تؤلف مثلثاً مثيراً مع نهديها القويين العاريين، لأنها لا تغطي سوى عانتها. وهنا تستطيع أن تفهم سر الحماس الملتهب الذي قاد أولئك المستكشفين العظام، القادمين من أوروبا فيكتورية، وجعلهم يتحملون كل أنواع الأخطار حتى وصلوا إلى «سرة» أفريقيا ثم رووا لنا مغامراتهم دون أن يشيروا بكلمة واحدة إلى ما فعلوه بأجسادهم، مؤكدين على إخلاصهم للجغرافيا بمثل ما برر جوجان فراره إلى تاهيتي بإخلاصه للفن.

من الأرشيف: صور مكتشفو منابع النيل: بيرتون، بيكر وستانلي، سبيك، جرانت.

وعلى أي حال، فإن المرأة البيضاء التـــي تـــزجج حواجبهـــا ورموشها وتلهث وراء تصفيف جديد لشعرها كل فـــصل طقـــسي، وتحني رأسها تحت ثقل السلاسل الفضية المدلاة من كل مكان فـــي رأسها ورقبتها، ليس لديها ما يدعو للضحك على الخطوط المنقطـــة المرسومة على وجه أختها السوداء والسلاسل الحديدية المدلاة مـــن أذنيها، والتصفيفات المعقدة للشعر، والزخارف الملونة لكل أجـــزاء جسدها.

من الأرشيف: مقارنات بين الموضة النسائية الأوروبيـــة وزينـــة نساء القبائل.

إن ملوك الموضة، الذين أوشكت جعبة الابتكار لـــديهم علـــى النفاذ، اتجهوا صوب هؤلاء البدائيين، يحدوهم الأمل في أن يجـــدوا في زينتهم الساذجة ما ينقذ مستقبلهم المهدد.

من الأرشيف: مقارنة بين عري المرأة الأوروبية وعري الأفريقيات في الماضي وتغطيتهم الآن لأجسادهم.

ولعل الأمور تغيرت بعض الشيء على الأقل فيما يتعلق بالعري. فبينما كان الرجل الأوروبي مشغولاً في محاولة إقناع المرأة الأوروبية بالتخفف من ملابسها لدرجة العري الكامل انطلاقاً من شعارات أخلاقية ، كان يبذل نفس المجهود، مستخدماً شعارات أخلاقية أيضاً، في إقناع الأفريقيات بتغطية أجسادهن، عن طريق شراء القمصان والفساتين التي أنتجتها مصانعه من القطن الذي اشتركن في زراعته.

من الأرشيف: الزواج عند القبائل النيلية.

لكن الحب هنا، على ضفاف أعالي النيل، مازال أكثر أخلاقية منه لدى الرجل الأبيض، فلا تتزوج فتاة من بنات القبائل رجلاً بسبب ثرائه وإنما تختار من تحبه. فعندما يصبح ثدياها في حجم قبضتي يديها، تلقي فتاة قبيلة LURI بوردة حمراء على الرجل الذي أعجبها. وتهيئ لها القبيلة على الفور خيمة خاصة لهما، فإذا حملت لابد أن يشتريها، أي يتزوجها.

من الأرشيف: نيل منطقة الصُد.

الإبحار في نيل منطقة الصُد، بفروعه وقنواته المتعددة، صعب بسبب الجزر العائمة من الزنابق (ورد النيـــل) والأعــشاب، التـــي تخفي تحتها، مثلها تفعل قمة جبل الثلج العائم في المحيط، شـــبكات من الجذور والتربة والنباتات المتحللة، ملتحمة في كتلة صلبة.

الباخرة.

البواخر العابرة تتألف الواحدة منها من خمس مراكب للبضائع تم وصلها ببعضها ببعض وهي وسيلة النقل الرئيسية من JUBA، أقصى نقطة تسيطر عليها حكومة الخرطوم، إلى KOSTI خلال موسم الأمطار. وتحمل كل منها حوالي الألف نسمة (مع مراتب نومهم ومواقد الفحم الخاصة بهم) يتجمعون فوق السطح من أجل التنفس، مسافة ٩٠٠ ميل، تستغرق في أحسن الحالات ستة أيام لكن قد تمتد، نتيجة الأعطال أو الجنوح، إلى ستة أسابيع.

خارطة الطريق من جوبا إلى كوستي.

من الأرشيف: مظاهر الحياة في الشمال: البيوت بدلاً من الأكواخ، والجلاليب البيضاء.

خلال ذلك تظهر علامات التغير على الجنة: الأدغال الكثيفة التي تلعب القرود بين أغصانها تتحول بالتدريج إلى أراضي شبه صحراوية، وبشرة الرجال تخف دكنة سوادها، وتظهر الجلاليب البيضاء فوق أجساد الرجال، تتبعها بعد قليل عمائم من نفس اللون، وتتغطى النساء، والعناقيد المفتوحة من أكواخ خلايا النحل تفسح المجال لبيوت مسورة مغلقة على سكانها. لكن النيل سرعان ما يكشف عن وجه مثير من أوجه تحولاته.

فهو يجري بلا منحدرات وسط المستنقعات ثم الصحراوات، لكنه لا يتبخر أبداً، ففي الصيف عندما تجف الأنهار الأخرى تكون مياهه قد وصلت إلى أعلى منسوب لها، ورغم أنه أقل وفرة من الكونغو أو الدانوب، فأنه يواصل الجريان في ظروف أكثر صعوبة، خلال أراضي جرداء غير ممطرة. ويظل مع ذلك قادراً على تعويض حاجة الأرض من المياه. كل ذلك لأنه، حاملاً اسم النيل الأبيض، يلتقي عند الخرطوم بقرينه، النيل الأزرق المنحدر من هضاب الحبشة.

خارطة النيلين والتقاؤهما عند الخرطوم.

وكالعادة في أمثال هذه التسميات، فإن النيـل الأبـيض لـيس أبيضًا أبداً، والأزرق كذلك، فالأول يبدو أخضر اللون فـي الربيـع وأحمره بعد ذلك، ولا يصفو أبداً ولا في الشتاء. أما الأزرق فهـو صافي اللون عادة إلا عند الفيضان فتسبح مياهه في لون الشكولاتة، التي يكتسبها من الهضبة الحمراء التي يجري خلالها، مانحاً الحيـاة لغرب إثيوبيا وشمال السودان وكل مصر.

*** ٣

الأمطار التي يستمتع الفلاح المصري بنتائجها (الفيضان) في أكتوبر من كل عام، تزور زميله الإثيوبي قبل ذلك بعدة شهور، وفي منتصف يونيو بالتحديد، في هيئة مرعبة: عواصف ورعد أعنف وأكثر من أي مكان آخر على ظهر الأرض. فتظهر انفجارات السحب وتختفي فجأة ككل شيء في ذلك البلد الغريب، بعد أن تدمر الرجال والماشية والأكواخ.

من الأرشيف: تناقضات الطبيعة في إثيوبيا كالعواصف والسيول والجفاف.

فالأنهار التي تنبع من حيث ينبع النيل في إقليم بحيرة تانا، تجف في الشتاء فيتحول السكان إلى بدو طوال تسعة شهور إلى أن يفاجئهم، كل مرة، اندفاع المياه من أعالي الهضبة في دمدمة سرعان ما تتحول إلى زئير. ويترك الآلاف بيوتهم على عجل ويلجئون إلى الجبال الأكثر علواً كما تتوقف كل المواصلات النهرية، ثم يعود كل شيء إلى حالة في سبتمبر.

خارطة الأنهار في إثيوبيا.

تعتبر إثيوبيا نافورة المياه الأفريقية فهي أغنى بلاد النيل في مصادر المياه إذ تحفل بالأنهار الداخلية التي تصب في البحر الأحمر وخليج عدن وعديد من الأنهار الكبرى التي تذهب إلى الصومال فالمحيط الهندي. والأخرى التي تتبدد مياهها في صحراء السودان مثل القاش وبركة أو التي تصب في النيل مثل عطبرة والسوباط والنيل الأزرق. والأهم في هذا كله أنها المنبع الرئيسي لنهر النيل إذ تزوده بحوالي ٨٤ بالمائة من مياهه عند أسوان.

منابع النيل في إثيوبيا.

على مبعدة سبعين ميلاً جنوب بحيرة تانا، يولد النيـل الأزرق في وادي GISH، على ارتفاع ٨٠٠٠ قدم بطريقة لا تبعث على أي احترام. ففي وسط مستنقع، على قمة منحدر مائل، يحيط سياج مـن البامبو بحفرة لا تزيد عن ثلاثة أقدام مربعة يتدفق منها في هـدوء نبع متوسط العمق من مياه صافية شديدة البـرودة، ويجـري دون فقاعات في نفق صغير ثم يختفي ناحية الشرق خلف غابة جبليـة: وخلف الغابة الجبلية ينضم إلى جداول أخرى إلى أن يـصب فـي الشاطئ الجنوبي الغربي لبحيرة تانا ليغادرها على الفور هابطاً، بعد دورة معقدة وسط الهضاب، إلى الحدود السودانية.

من الأرشيف: التقاط الذهب من المياه.

قبل أن يغادر النهر الحبشة، كان يواجه عادة (وربما إلى الآن) بمشهد غريب ألقى ضوءًا ساطعاً على تاريخ البلاد: مئات من الزنوج العرايا ينحنون في المياه أسفل حرارة الشمس اللاهبة، ينقبون بين أحجار وحصى فوق كفوفهم عما يلمع من بينها فيحتفظون به فوق صفحة خشبية، ويلقون بالباقي جانباً، وعندما ينتهي يوم العمل يصبون ما جمعوه في أواني صنعت من أجزاء نبات القرع ويحملونه إلى الملاحظ الذي يزنه بموازين أوروبية صغيرة. إنه الذهب الذي كتب البحث عنه هو والعبيد مصير البلاد.

من الأرشيف: الإمبراطور هيلا سلاسي.

وكان الإمبراطور هيلا سلاسي، قبـل سـقوطه فـي ١٩٧٤، يحصل لنفسه على نصف المحصول السنوي من الذهب الذي يجمع في أجولة من القماش، بينما لا يحصل من وقفوا في النهـر عـشر ساعات يعملون في تخليص الذهب الخام من المخلفـات البركانيـة على شيء: ولا حتى قليل من الملح، لأنهم عبيد GALA.

من الأرشيف أو جدران الكنائس. ملكة سبأ.

هكذا كان الأمر دائماً منذ تحلت (وفقاً للأسطورة) بكل ما لديها من ذهب، أجمل الأميرات الحبشيات وأشهرهن، ملكة سبأ، وذهبت إلى أورشليم للقاء الملك سليمان فأنجبت منه "منيلك ابن الحكيم"، الذي تولى العرش مؤسسا أسرة حكمت أطول من أي واحدة غيرها في الشرق الأوسط: من ٨٠٠ قبل الميلاد إلى ٨٠٠ بعده!

من الأرشيف: فتح الحبش لمصر.

ما حدث بعد ذلك لا يمكن فهمه إلا من خلال الامتزاج الـذي تم بين الأجناس والثقافات التي وصلت الحبشة عبر البحر الأحمـر والصحراء النوبية. ولهذا السبب أطلق الإثيوبيون على بلادهم اسـم HABESH أي الخليط، وهو اسم يمكن إطلاقه أيضاً على الولايات المتحدة. ولم يقوموا هم أنفسهم بأي غزو لغيرهم إلا مـرة واحـدة سنة ٧٣٠ قبل الميلاد عندما فتحوا مصر (هم أيـضاً!!). كمـا أن مملكة AXUM القوية التي قامت فـي شـمالها حكمـت الجزيـرة العربية مدة طويلة، وكانت المنطقتين على أية حال أرضـاً واحـدة قبل خمسة ملايين سنة عندما شقها البحر الأحمر.

من أرشيف التاريخ الإثيوبي.

واكتملت فوضى الثقافات عندما أطلق ملك يهودي/ عربي سنة ٣٠٠ ميلادية على نفسه لقباً يونانيــاً: SON OF ARES، ذلــك أن الإثيوبيين اعتنقوا المسيحية قبل الرجل الأبيض (وحملها إليهم تاجر سكندري سنة ٣٣ ميلادية) ويملكون اليوم كنيسة عمرها ١٥ قرناً.

من الأرشيف: الفلاشا.

وسط هذا الكورس اليوناني/ العربي/ المسيحي، رفع اليهود صوتهم وحاولوا إعادة ديانتهم ابتداءً من القرن السادس عشر، مطلقين على أنفسهم اسم FELLASHA أي «الذين أسيء فهمهم»، إلى أن تمكنت أميرة يهودية من إسقاط سلالة سليمان الحاكمة (التي كانت قد اعتنقت المسيحية)، وحكمت هي وسلالتها إلى حين. فطوال القرون التالية كان التاريخ الإثيوبي لوحة من ملكات مهزومات يذبحن ويلقي بجثثهن إلى الكلاب، ومن مواكب لرهبان متبتلين لم يتعففوا عن النبيذ والشواء وذبح زعماء القبائل الوثنية بعد استضافتهم.

من الأرشيف: اقتتال الكنائس المسيحية.

لكن المجتمع المسيحي الدولي لم يتقبل هؤلاء المـؤمنين ذوي البشرة الداكنة، إلا بعد أن تواترت الأنباء عن ثرواتهم من الـذهب والعبيد. فتوافد جيزويت روما، مبعوثون من البابا. وسرعان ما دب الصراع الدموي بين الرؤساء (جمع «رأس») ذوي الأصل العربي اليهودي، الذين كانت كنائسهم عبارة عن أكواخ واحتفالاتهم الدينيـة طبول وصراخ، بشأن الخلاف حول طبيعة المـسيح. وفـي سـنة ١٦٣٠ بينما كان الأوروبيون يقتتلون على نفس القضية كان القـبط والكاثوليك في الحبشة يذبحون بعضهم البعض من أجلها.

من الأرشيف. ملك الملوك وملكة إنجلترا.

إن التاريخ الإثيوبي لغريب حقاً! فقد تفككت الإمبراطورية بسبب ذلك الخلاف إلى أن تمكن زعيم عصابة لصوص من الاستيلاء على السلطة سنة ١٨٥٠ وحكم باسم NEGUSNEGEST أو ملك الملوك، وعندما سمع بأن ملكة إنجلترا قد ترملت عرض عليها الزواج (فالغطاء الشرعي كان ضرورياً قبل عيدي أمين بقرن وعقدين!). وعندما لم تعبأ بالرد عليه ثار غضبه وألقى بالسفير الإنجليزي في السجن وهو ما كان مبرراً كافياً لتدخل القوات الإنجليزية (لعلها كانت تبحث عنه) وتمكنت من حصاره، فآثر الانتحار!

من الأرشيف: الإيطاليون في الحبشة.

وبعد ست وأربعين سنة انتقم له MENILEK الثـاني عنـدما هزم الإيطاليين في موقعة ADUA سنة ١٨٩٦، وخصى جنـودهم! (وانتقم لهم موسوليني بعد أربعين سنة عندما استعمر الحبشة سـت سنوات وجرب الغازات السامة في أهلها) وعنـدما مـات مينليـك الثاني في ١٩١٣ كان قد نجـح فـي توحيـد سـبع ممالـك فـي إمبراطورية واحدة، جعل من ADDIS-ABABA عاصمة لها.

كنائس لاليبلا المحفورة في الصخر من القرن ١١ و ١٢.
أو كنائس جونجور.

لكن هذه الإمبراطورية التي يصل حجمها إلى حجم فرنسا وإيطاليا سويا لم تخرج أبداً من العصور الوسطى. ففي مطلع القرن العشرين كان أكثر الأباطرة مسيحية يملك ٥٠٠ جارية فضلاً عن كل شيء آخر. وفي منتصف القرن كان هناك ٥ مليون عبد، ومئات الألوف من الرهبان والقسس بلحى مرسلة وعمائم بيضاء هائلة وأحذية مدببة الطرف إلى أعلى، وصليب من العظام أو المعدن يتدلى فوق الصدر، الصفوة بينهم هم المتعلمون ويرفضون ترجمة الإنجيل من الإثيوبية القديمة إلى الأمهرية الحية. وبذلك نجحوا في وضع أيديهم على قطع كبيرة من الأرض يزرعها العبيد، أما رئيسهم فيحمل لقب «بابا الأقباط والأحباش» وينتخبه المجمع المقدس في الإسكندرية.

معبد يهودي.
مسجد.

وإلى جانب هؤلاء عدة مئات الألوف من المسلمين في الإقليم الشمالي (تقترب نسبة المسلمين بين السكان من النصف) يمارسون عادة اقتبسوها من إحدى قبائل أواسط النيل الأبيض وهي تخييط فرج الفتاة عند البلوغ بشعر الجياد حتى تكون عفتها مضمونة عند الزواج. أما الختان فقد مارسه المسيحيون على الجنسين نقلاً عن الفلاشا الذين لم يكونوا يعرفون العبرية ولا التوراة، ومع ذلك يتطهرون بعد أي احتكاك بغير يهودي (فلا يفترقون عن غلاة الإسلاميين المتعصبين في مصر اليوم الذين قد يرفضون تناول كوب ماء من يد مسيحي بمثل ما يرفضون أن تجلس المرأة المسلمة في فوق مقعد جلس عليه قبلها بربع ساعة رجل ولو كان مسلما!) ولا يتميزون عن بقية الأحباش في شيء إلا بأنهم أمهر حرفيي البلاد، ويشترك الجميع في شيء فريد هو أنهم لا يعرفون التقبيل بالفم!

مقر منظمة الوحدة الأفريقية في أديس أبابا.
من الأرشيف: الإمبراطور هيلا سلاسي يستقبل رؤساء الدول الأفريقية الثوار في ١٩٦٣.

هكذا ظلت إثيوبيا في عزلة عن العالم (بخط تليفوني واحد وخط حديدي واحد يدخلان العاصمة) حتى اجتاحت رياح التغيير أفريقيا في بداية الستينيات. وتمكن إمبراطورها العجوز الداهية من الصمود بأن استقبل في أديس أبابا رؤساء الدول الأفريقية «الثوار» في مايو ١٩٦٣ وقدم العاصمة الإثيوبية مقراً لمنظمة الوحدة الأفريقية بينما قدم في الوقت نفسه أضخم قاعدة للاتصالات والتسهيلات العسكرية للولايات المتحدة، مفتتحاً بذلك لعبة كراسي موسيقية لم تنته حتى الآن.

خارطة إثيوبيا.

لكن أسد إثيوبيا العجوز لم يصمد طويلاً. فقد بدأ الـصوماليون الذين تحالفوا مع السوفييت زحفهم التدريجي لاستعادة إقليم أوجادين الذي ضمه الإمبراطور، بينما ظهرت في إريتريا حركـة تحـرر، نالت بدورها عطف السوفييت الذين كانوا يرفعـون شـعار تأييـد حركات التحرر الوطني. وفي ١٩٧٤ كانت إثيوبيا التـي أنهكتهـا مجاعة قاسية في الشمال راح ضحيتها قرابة ربع مليـون نـسمة، واحدة من أفقر بلاد أفريقيا بأقل معدل عمر في العـالم: ٣٩ سـنة، ومعدل أمية ٩٣ في المائـة، عنـدما أطـاح انقـلاب عـسكري بالإمبراطور، وبالطبقة الإقطاعية الحاكمة.

من الأرشيف انقلاب ١٩٧٤: القضاء على الإمبراطور.

وبتأميم الأراضي التي كانت حكراً علـى الطبقـة الإقطاعيـة الحاكمة والكنيسة بدأ التحول التدريجي نحو الماركسية.

من الأرشيف: صور ماركس وإنجلز ولينين على جـدران أديـس أبابا.

وألفت الولايات المتحدة نفسها على قارعة الطريـق، بعـد أن سقطت قاعدتها الضخمة في يد السوفييت. لكنها لم تلبث أن وجدت نقطة ارتكاز بديلة في القرن الأفريقي عام ١٩٧٧ بعد قرار حكومة سياد بري الصومالية بطرد السوفييت، فورث الأمريكيون القاعـدة السوفييتية في بربرة ومقديشيو، بينما انساق الـسوفييت فـي تأييـد منجستو ميريام وأولوا ظهرهم لحركة إريتريا.

من الأرشيف: مدارس ومستشفيات.

لقد قام نظام منجستو بعملية تحديث كبرى ظهرت نتائجها في الريف بوضوح، وفي تحسن وضع المرأة. لكنه لم يستطع أن يتخلص من آفات العالم الثالث التقليدية، فدخل حرباً مريرة للحيلولة دون عودة إقليم أوجادين إلى الصومال، و استقلال إريتريا. وشن إرهابا أحمر قتل فيه أكثر من عشرة آلاف شخص من العناصر التي طالبت بحكومة مدنية.

من الأرشيف: عملية موسى (الفلاشا).

وعندما تقلصت المعونات بسبب الصعوبات الاقتصادية التي واجهها الاتحاد السوفييتي في أوائل الثمانينيات، بدأ ميريام يتطلع حوله بحثاً عن مخرج، ومن أجل دخول واشنطون نظم مع قرينه السوداني جعفر النميري الذي كان يواجه موقفاً مشابهاً، «عملية موسى»، التي تم بها نقل كافة أبناء الفلاشا (٣٠٠٠٠) سراً إلى إسرائيل (حيث اكتشفوا فجأة أن إله موسى الأبيض اللون يفضل مؤمنين من نفس اللون) مقابل حفنة من الدولارات ووعود بتسهيلات ائتمانية من البنوك العالمية. لكن موسى الذي أنقذ قومه من فرعون مصر، عجز عن إنقاذ ميريام.

من الأرشيف: سقوط منجستو.

ففي خلال ذلك كله كانت الولايات المتحدة، بعد خروجها من الصومال برفقة سياد بري، ترسم في نشاط مخططاً كاملاً للقرن الأفريقي، يقوم على تقسيم إثيوبيا، بالتعاون مع إسرائيل بالطبع. هكذا سهل الاثنان سقوط منجستو في مايو ١٩٩١ وتسليم السلطة لجبهة التحرير الشعبية، وهي حركة ماركسية لينينية من إقليم تيجري، تحولت إلى الليبرالية والتزمت أمام مستر كوهين، مدير قسم أفريقيا في وزارة الخارجية الأمريكية، في اجتماع عقد في لندن، باحترام التعددية السياسية وتقسيم البلاد، التي تضم ٨٠ جماعة عرقية، إلى ١٤ إقليماً عرقياً.

أديس أبابا.

عاصمة إثيوبيا ويعني اسمها «الزهرة الجديدة». ترتفع مبانيها الحديثة ثمانية آلاف قدم من بحر الأكواخ الطينية. وتتمتع بطقس بديع دائم الاعتدال. إن الهدوء يسودها الآن، لكنه هدوء مشوب بالحذر، كما تقول عادة التقارير الصحفية عندما تفتقد إلى معلومات محددة، إذ أحياناً ما تجوب طرقاتها عصابات مسلحة من مجندين كانوا ينتمون إلى جيش منجستو الذي سرحته الحكومة، وتتجمع على الحدود الصومالية ميليشيات قبلية، وتواجه عدة ملايين من خمسين مليوناً خطر المجاعة في بلد ينبع منه النيل الأزرق، الذي يحمل ماء الحياة و«غرينها» إلى قرابة مائة مليون من البشر يتعرضون للموت جوعاً وعطشاً بدونه.

*** ٤

خارطة النيل الأزرق. الروصيرص.

يحتفظ النيل الأزرق بمجراه الضيق عندما يغادر إثيوبيا إلى السهل السوداني، ولا يبدأ في الاتساع إلا عند الروصيرص على مبعدة ٤٠٠ ميل من مصبه في العاصمة السودانية.

بدو الصحراء. النسر.

نحن هنا في عالم بدو الصحراء الذي يسيطر النسر الفخم على سمائه. مسلمون لا يعرفون القرآن لكـــن يعرفـــون موقـــع القبلـــة. والرجل منهم يعامل المرأة بحرية لا تسمح بها الأديـــان والتقاليـــد المحيطة به. ومنذ قرن لاحظ مستكشف إنجليزي سطوة النساء فـــي قبيلة DJALLI التي تعيش بين سنار وكردفان، إذ يشترطن كتابـــة عند الزواج أن يكون لهن كل أربعة أيام يوم يتمتعن فيـــه بالحريـــة الكاملة. ويؤمن البشارية، أكثر البدو وسامة، أنه ليس مـــن ســـبيل للثقة في أن الزوج هو الأب، على عكس الحال بالنسبة للأم، ولهذا يستبعدون الابن من الميراث، وينقلونه إلى ابـــن الأخـــت أو ابـــن البنت، حيث يكون انتقال الدم فوق كل شك. وحتى بداية السبعينيات كان الزوج منهم إذا وجد عصا غريبة على باب كوخـــه أو خيمتـــه يمتنع عن الدخول وينتظر في أدب إلى جوارهـــا حتـــى ينـــصرف الرجل الغريب!

الخارطة.

أرض الجزيرة.

بينما يقترب النيل الأزرق من مصبه. يحصر بينه وبين النيل أكبر مزرعة مروية في العالم: إنها أرض الجزيرة التي تبلغ مساحتها ٢ مليون فدان وتنتج محصول التصدير الرئيسي وهو القطن. وهو مشروع تفتقت عنه عبقرية المستعمر الإنجليزي: فبفضل خزان سنار وأسلوبه الفريد في حجز المياه وتوزيعها أمكن ري المنطقة الشاسعة الفاصلة بين النيلين. وعندئذ قدم الرجل الأبيض بذور القطن وجمع المحصول في أجولة حملتها الجمال إلى محطة القطار التي أقامها على مقربة ليأخذها القطار شرقاً إلى البحر الأحمر ومنه تنقلها السفن عبر المحيط إلى جزيرته، وابتهجت ٢٠ ألف أسرة من المزارعين بماكينات الخياطة والجرامافونات التي أعادت عن طريقها ما أخذته من مال إلى إنجلترا التي حققت فائدة أخرى أهم، إذ حررت مصانع منشستر من الاعتماد على قطن تكساس. أما السودانيين فلم تلبث بهجتهم أن زالت وبدأت تساورهم التساؤلات بشأن دودتين فتاكتين ترعرعتا في مياه الري، الأولى هي الإنكلستوما والثانية سبق أن اكتشفها الألماني بلهاريس، وبشأن الجدوى من إنتاج مادة خام جديدة في بلد يتعين عليها، كي تصدرها، أن تعيش من غير خبز كان هو نتاجها الطبيعي منذ آلاف السنين؟ نفس الأسئلة التي عرفتها المستعمرات في كل مكان.

أيا كان الأمر، فإن «الجزيرة» لم تعد الآن كما كانت من قبل، فقد أصابها: المرض الخبيث بأعراضه المألوفة.

مشارف الخرطوم من الجو.

قبل الخرطوم بقليل يظهر جسر حديدي كبير بأعمدة ضـــخمة وقباب يجري فوقه الخط الحديدي إلى العاصمة المثلثة التي تتكــون من الخرطوم وشقيقتيها الخرطوم بحري وأم درمان (المدينة الأقدم على الشاطئ الغربي).

مقر الحاكم البريطاني السابق والقصر الرئاسي.

القلعة التي كانت مقراً للحاكم البريطاني ولأحداث درامية تليق بشكسبير.

التقاء النيلين.

بعد ميل آخر يظهر الجسر الثاني الضخم وأسفله النيل الأبيض العريض. ومن هذه اللحظة يصبح النيلين نيلاً واحداً. ويمكن رؤية امتزاجهما، الذي وصفه شاعر رومانسي واسع الخيال بأنه أطول قبلة في التاريخ، من نافذة فندق من فنادق الخمسة نجوم التي ترتفع في كل مدينة على النيل، حيث يمكن الحصول بسهولة على قبلة قصيرة بالثمن المناسب.

من الأرشيف: جعفر النميري في واشنطون يوم الانقلاب عليه.

طالما وصفت الخرطوم في الماضي بأنها «مدينة بديعة خضراء بمنازل بيضاء»، وهو وصف صارت أبعد ما تكون عنه في ظل دكتاتورية النميري، الذي غادرها بانقلاب عسكري سنة ١٩٨٥ (أو بالأصح لم يعد إليها لأنه كان لحظتها في واشنطون يستجدي معونة) أتاح للبلاد أربع سنوات وثمانية أشهر من الحياة الديموقراطية الآمنة، انتعشت فيها الآمال، وعادت الأحزاب والنقابات التي كان النميري قد حرمها، بل أضيفت إليها أحزاب ونقابات جديدة وعلى رأسها أول نقابة من نوعها في العالم وهي للذين قطعت أيديهم في ظل «شريعته».

من الأرشيف: مقطوعو الأيدي.

وللأسف فإن هذا الوضع لم يستمر طويلاً، لأن المشاكل التي خلفها النميري كانت من التعقيد لدرجة استعصت على الحل، ولم يتحسن الوضع الاقتصادي للجماهير مما مهد الطريق لاستيلاء الجبهة الإسلامية على الحكم، فأشعلت نيران الحرب الأهلية من جديد، وواصلت البلاد انحدارها إلى هاوية لا قرار لها.

الشارع في الخرطوم.
لافتة: «ثورة الإنقاذ جسدت المعنى الحقيقي للاستقلال بتحقيق شرع الله».
لافتات الآيات القرآنية. إعلانات الكوكا والبيبسي.
إعلان الكوكا: «اتقوا النار ولو بشق ثمرة، كوكاكولا».

نساء غير محجبات لكن في الزي التقليدي برفقة رجال أمام الجامعة وعلى الكورنيش.

من النادر أن تجد اليوم امرأة حاسرة الرأس، لكن حذار أن تسئ الفهم. فما تتغطى به المرأة السودانية في الشمال ليس هو الحجاب الإسلامي وإنما الزي التقليدي. فقد فشلت محاولة النظام في فرض الحجاب، والتي بلغت أوجها منذ عامين عندما كانت «شرطة الانضباط العام» تلقي القبض على النساء السافرات.

الشارع في الخرطوم.

إن طوابير الخبز والجاز مشهد مألوف اليوم في كـل مكـان، وانقطاع الكهرباء يتكرر كثيراً، ومن النادر أن تجد طريقاً معبدا أو عاملاً ماهراً، فقد هاجر الجميع إلى الخليج. وتخفض الأمراض من متوسط العمر إلى الأربعين. وحتـى سـنة ١٩٧٨ كـان الجنيـه السوداني يساوي ثلاثة دولارات ونصف دولار، أما اليوم فلا تكفي خمسمائة جنيه سوداني لشراء دولار واحد!!!!

قطيع فيلة.

كيف حدث ذلك؟ إنها القصة نفسها مع بعض التنويعات. ومن المحتمل أن الأمور كانت ستختلف تماماً لو لم تكن لعبة البلياردو قد اخترعت، فمن أجل تزويد ستة رجال بالكرات اللازمة للعبها كـان لابد من إسقاط أضخم حيوان على سطح الأرض، لأن نابيه ينتجان ثماني أو عشر كرات. وسرعان ما تحول صيد الفيـل إلـى صـيد الإنسان.

من الأرشيف: تجارة العبيد.

ففي البداية اكتشف تاجر عبقري الخرز الزجاجي كوسيلة للمقايضة، وقدم للسوداني السعيد خمس حبات كبيرة مقابل الناب الواحد. وعندما نفد العاج، قدم رئيس القبيلة العبيد. وبين عامي ١٨٤٠ و١٨٦٠ تم بيع ٦٠ ألف رجل كل سنة فضلاً عن الذين تساقطوا موتى في الطريق. وتم كل ذلك بمباركة الكنيسة الأوروبية، وورثة الثورة الفرنسية. وفي السودان نفسه كانت الأديرة القبطية تعيش على إعداد الخصيان ليلتحقوا بخدمة أثرياء المسلمين. وقد وصف BAKER كيف رأى بعينيه الصبية السود يوسدون الرمال ثم يتم خصيهم بضربة سكين، ويوقف النزيف الناشئ بالحديد المصهور.

هكذا جردت القارة (المظلمة) من قوة العمل التي كانت كفيلة بتنميتها، وراكمت لها بؤر الأزمات.

من الأرشيف: جوردون باشا والمهدي.

وقد تجمعت إحدى هذه الأزمات في نهاية السبعينيات من العقد الماضي. كان الجنرال الإنجليـزي GORDON يحكـم الـسودان، مستعيناً بسطور الإنجيل عندما يواجه أية مـشكلة، بينمـا يجمـع الضرائب التي فرضت على كل شيء تقريباً فـي مجتمـع طـال استنزافه. هكذا كانت التربة ممهدة لظهور «مخلص» للشعب، فـي صورة «درويش» أسـمى نفـسه "المهـدي" وصـاحبت ظهـوره المعجزات المألوفة في هذه الأحوال (إذ وجد اسمه مطبوعـاً فـوق بيض خارج لتوه من الدجاج) أعاد الأمل إلى القلوب وتابعه الآلاف «من ذوي القمصان البيضاء».

قلعة أم درمان.

فزحفوا على قلعة أم درمان واسـتولوا عليهـا ثـم اسـتعدوا لمهاجمة الخرطوم.

قصر الحاكم العام (الذي رأيناه في بداية الفصل) السطح.

من فوق السطح كان جوردون يرقب جيش المهدي.

قاعة الطعام.

القاعة التي قضى فيها جوردون أيامه الأخيرة.

خارطة.

وفي اللحظة التي آمن فيها المهدي حقاً برسالته الإلهية (كما يحدث عادة لكل المخلصين)، كان الدرويش الأبيض جوردون قد آمن برسالته الصليبية، أن يتحقق الفتح الأوروبي لوسط أفريقيا على يديه، وأصر على البقاء مفضلاً مواجهة غريمه رغم تعليمات الحكومة الإنجليزية له بالانسحاب، وهي المواجهة الدرامية التي انتهت بمصرعه في ١٨٨٤.

من الأرشيف:المهدي يدخل الخرطوم.

من الأرشيف: كيتشنر ومارشان.

ما فشل جوردون في تحقيقه حيا، حققـه ميتـا. فقـد تحـول مصرعه إلى عامل سياسي وذريعة للانتقام، إذ تقرر في لندن التقدم في السودان برجال مصريين وعلى نفقة الخزانة المـصرية بقيـاد الچنرال KITCHNER. وفي سبتمبر ١٨٩٨، أي بعـد أكثـر مـن سنتين، تمكن الچنرال من سحق جـيش المهـدي فـي معركـة أم درمان، وواصل الصعود بقواته إلى أعالي النيـل، حتـى وصـل فاشودة، حيث وجد في انتظاره درويشاً أبيض آخر، على رأس قوة مـسلحة، فرنـسيا رومانتيكيـا هـذه المـرة هـو CHEVALIER MARCHAND كان قد وصلها قبل شهرين بعد مسيرة ثلاث سنوات من الكونغو. كان اللقاء مهذباً للغاية، جديراً بجنتلمانين أوروبيـين، وتمخض عن انسحاب الدرويش الفرنسي، مسجلاً فشل فرنسا عنـد المنابع كما سجل نابليون فشلها عند المصب قبلها بأكثر من نـصف قرن. وبذلك خلص النيل كاملاً للأسد البريطاني.

متحف المهدي.

أما العقيدة المهدية فقد خبت نيرانها بعد ١٥ سنة ولم يتبق منها غير متحف لمقتنيات المهدي وسلالة إقطاعية تمثل اليمين السياسي في البلاد، عمل «المخلصون» الإسلاميون الجدد، على اســتبعادها من السلطة.

٥ ***

خارطة النيل بعد الخرطوم.

بعد الخرطوم بقليل يلتقي النيل بآخر روافده الرئيسية، نهر عطبرة، الذي يمده بخمس مياه الفيضان، يجلبها من مرتفعات الحبشة على مبعدة ٨٠٠ ميل. ويبدأ النيل رحلة ١,٧٠٠ ميل عبر الصحراء متجهاً إلى البحر الأبيض المتوسط. إنها رحلة شاقة يسهل فيها الضياع في الصحراء وهو ما يحدث للنيل إذ يتغير اتجاهه مسافة ٢٠٠ ميل قبل أن يعود إلى اتجاهه الأصلي نحو الشمال والبحر المتوسط على مبعدة ١٢٠٠ ميل. وسرعان ما تظهر الأهرامات الأولى.

أهرامات كوش.

إنها كل ما تبقى، فضلاً عن النوبيين أنفسهم، من حضارة كوش القديمة التي حاولت أن تضاهي الأهرامات الهائلة في الشمال.

صور أهالي كوش على مقعد وصندل توت عنخ آمون.

وكان قدماء المصريون قد غزوا هذه المنطقـــة فـــي القـــرن السادس عشر قبل الميلاد وحكموها خمسة قرون حتى دارت الدائرة وغزا ملوك كوش المتمصرون مصر مؤسسين إمبراطورية امتدت من نقطة التقاء النيلين الأبيض والأزرق حتى البحر الأبيض.

جبل برقل.

من السهل أن يدرك المرء كيف استولت الرهبة والحيرة على قلوب القدماء أمام هذا الجبل العجيب. وكيف تحـول عنـدهم إلـى مكان مقدس، وبالتحديد إلى المنتجع الجنوبي للإله آمون.

إن الواجهة الشرقية للجبل تضم نتوءًا طبيعياً ظنه كثيـر مـن الأثريين التمثال الباقي من أربعة تماثيل ضخمة نحتت فـي جـدار الجبل على طريقة معبد أبو سمبل الشهير الذي يطل على النيل على مبعدة ٢٧٠ ميل شمالاً وربما بواسطة نفـس الـشخص: رمـسيس الثاني.

لقطة مقربة للنقوش المحفورة قرب القمة.

إن الكتابة الهيروغليفية تسجل انتصارات طهارقة، أقوى ملوك كوش، على قبائل الصحراء الغربية وبدو الشرق. وكانت النقــوش مغطاة طبقاً للعادة المصرية بطبقة من الذهب تعكس أشعة الــشمس وتحولها إلى شعاع يبرق وسط الصحراء وتراه القوافل من بعيــد. وعندما تتطلع إليها لا نملك أن نتساءل: كيف تمكن أولئك الناس من الوصول إلى هذا الارتفاع؟ إن أسئلة كثيرة مماثلة ستقابلنا من الآن كلما اتجهنا شمالا...

خارطة للنيل من كوش إلى الصعيد.

.. وتعرفنا على آثار الحضارات المختلفة التي تعاقبــت علــى ضفاف النيل والتي تفسر أصل كثير من المعتقدات والأساطير.

الإله أوزوريس.

الإله أوزوريس، صاحب الأسطورة الشهيرة، الذي كان يتمتع بمركز متميز بين آلهة مصر لأنه كان التجسيد الحي لفيضان النيل وللخير الذي يأتي معه.

نقوش معبد دندرة.

أوزوريس وهو راقد في مثواه ثم وهو يبعث رويدا حتى يقف منتصبا بين أيدي زوجته المخلصة إيزيس وأمامه رجل يحمل مفتاح الحياة. وكان المصريون يتخذون من قصة بعثه سنداً في الحياة وأملاً في الخلود ويرون في فيضان النيل مصدراً لهذا كله.

صور الجوعى في ممر هرم أوناس.

لكن النيل كانت له تجليات أخرى غير ذلك. ففي نهاية الأسرة السادسة انخفض وانتشرت المجاعة وآلت البلاد إلى الفوضى. وكان سقوط الدولة القديمة سنة ٢٢٠٠ ق.م مفاجئًا ودون مقدمات ودشن عصر الاضمحلال الأول.

نقش المجاعات على جدران مقبرة الأمير أنخ تيفي أمير مقاطعة هيراكونبوليس وإدفو في المعلا على مبعدة ٣٠ كيلومترا جنوب الأقصر: «مصر عانت كلها من الجوع لدرجة أن الكثيرين اضطروا لأكل أطفالهم...».

وتكررت هذه الشكوى ذاتها بعد ذلك طوال عصور التاريخ المصري.

ومن الطبيعي أن النهر، بفيضانه وجفافه، أصبح الهاجس الأول لكل من حكم مصر حتى العصر الحديث.

خارطة النيل: الحدود المصرية وبحيرة ناصر.

بعد الحدود المصرية يصبح النيل بحيرة هائلة تمتـد مـسافة ٣٠٠ ميل خلال منطقة غير مأهولة، حاملـة اسـم جمـال عبـد الناصر...

من الأرشيف: جمال عبد الناصر في بداية الثورة.

.. الذي طرد سنة ١٩٥٤ بقايا القوات الإنجليزية في مــصر، بعد سنتين من طرد آخر أبناء الأسرة الملكية التي رعاها الأتــراك أولاً ثم الإنجليز. وأصبحت مصر أخيراً، ولأول مرة منــذ ٢٣٠٠ سنة، ذات سيادة حقيقية ومحكومة بواحد من أبنائها.

السد العالي.

السد العالي، أكبر مشروع جماهيري في تاريخ مــصر منــذ الأهرامات، الذي أقيم بارتفاع ١٢١ متراً وطول ٤,٢ كيلومتراً عند القمة. فقد آمن ناصر بضرورته لتوفير الطعام للسكان المتزايــدين وتوليد الطاقة الكهربائية للتصنيع، من خلال احتجاز الميــاه التــي تصب في البحر المتوسط والتي كانت تبلغ نصف حجم مياه النهر.

من الأرشيف: عبد الناصر يعلن تأميم قناة السويس.

لقد ألقى السد العالي بظله على حاضر ومستقبل مصر منذ مولده، بل وأصبح رمزا لعصر كامل. فعندما سحب البنك الدولي بضغط الولايات المتحدة وبريطانيا عرض تمويل إنشائه، رداً على رفض الانصياع لخططهما السياسية والعسكرية، حقق عبد الناصر سنة ١٩٦٥ حلماً مصرياً آخر بتأميم قناة السويس التي شقها العمال المصريون بالسخرة وافتتحها خديوي مصر التركي إسماعيل سنة ١٨٦٩...

الغرفة الخاصة بالإمبراطورة في متحف القلعة.

... في حضور ضيفة شرف فاتنة هي الإمبراطورة الفرنسية يوجيني، عرض عليها الخدمات التقليدية ولا نعرف إن كانت وافقت.

من الأرشيف: عدوان ٥٦.

وعلى أي حال فإن فرنسا اشتركت على الفور مــع بريطانيــا وشريك ثالث سيلعب منذ الآن دوراً رئيسياً في المنطقة هو إسرائيل في حملة عسكرية تأديبية لمصر انتهت بالفشل. فقــد ظلــت القنــاة مصرية.

من الأرشيف: ناصر وخروشوف وعبد السلام عارف في افتتـــاح بدء العمل في السد.

وقام الاتحاد السوفييتي بتمويل بناء السد الذي بدأ العمــل فيــه سنة ١٩٦٠.

من الأرشيف: مراحل وانتهاء العمل في السد.

وبعد خمسة عشر سنة، وخمس سنوات مــن وفــاة ناصــر، امتلأت البحيرة التي تعتبر من أكبر البحيرات الصناعية في العــالم، وأصبحت قادرة على تخزين ١٧٠ مليار متر مكعب من الماء ممــا يكفي لتلبية حاجة مصر من السائل الثمين لمدة ثلاث سنوات.

السد العالي اليوم.

لقد أثار السد مناقشات طويلة بين مؤيدين ومعارضين وخاصة بعد وفاة عبد الناصر. فالمنتقدون قالوا إنه احتجز غرين الفيضان السنوي خالقاً الاعتماد على الأسمدة الكيماوية، وضاعف حالات الإصابة بالبلهارسيا بين الفلاحين وسبب ارتفاعاً في مستوى المياه الجوفية بالوادي حتى القاهرة، فضلاً عن أنه جرد ٦٠,٠٠٠ نوبي يتكلمون لغتهم الخاصة ولا يكتبونها، من قراهم التي ابتلعتها البحيرة وأعيد توطينهم في قرى جديدة بعيدة عن النيل.

قرى النوبة القديمة والجديدة.

أما الأنصار فقالوا أن الـسد منـع الفيـضان وأنـتج ٢,١٠٠ ميجاوت من الكهرباء وأضاف مليون ونصف مليون فـدان جديـدة إلى المساحة المزروعة.

النصب التذكاري الضخم الذي أقيم تخليداً للسد.

بحيرة ناصر.

لكن الفريقين يتفقان على أنه أنقذ مصر من دورتي فيضان في ١٩٦٤ و ١٩٧٥ ودورتي جفــاف فــي ١٩٧٢ و ١٩٨٤، وهــي الدورات التي طالما عانى منها سكان وادي النيل منذ القدم، وورد ذكرها في الكتب السماوية.

من الأرشيف: صور متتابعة من حياة أنور السادات (يدخن البايب، يخطب، مع كلبه، في حديقة قصره، يتمشى، في الملابس الهتلرية، حادث المنصة).

والواقع أن الخلاف بشأن السد العالي هو مظهر للخلاف بشأن سياسة عبد الناصر التي أثارت كثيراً من العداوات خارج مصر وداخلها، بمحاولتها من جهة إحداث تراكم مالي من خلال تأميم الملكيات الخاصة الكبيرة، ومن جهة أخرى توحيد السوق العربية على أساس مستقل، وهي السياسة التي نجحت إسرائيل والولايات المتحدة في إجهاضها بعدوان سنة ١٩٦٧. وقد تبنى خليفته أنور السادات سياسة مضادة عرفت باسم الانفتاح الاقتصادي وضعت البلاد تحت رحمة صندوق النقد الدولي، ولهذا قاد الهجوم على منجزات عبد الناصر وفي طليعتها السد العالي.

لقطة مقربة للنصب التذكاري للسد العالي وللجزء العلـوي منـه حيث تبدو صورة السادات فوق صورة ناصر.

وعلى عادة الفراعنة القدماء حاول تغيير اسم البحيـرة التـي تحمل اسم جمال عبد الناصر وعندما فشل حفـر صـورته فـوق صورة سلفه المحفورة في قمة النصب التذكاري الذي أقيم عند السد على مقربة من معبد أبو سمبل الهائل الذي نحته في الحجر الرملي في القرن الثالث عشر قبل الميلاد فنانون وعمـال عظـام لتخليـد رمسيس الثاني الذي كان مغرماً بإزالة أسماء أسلافه وصورهم من فوق التماثيل والمعابد ووضع صورته مكانها.

معبد أبو سمبل: الواجهة، صور رمسيس في الداخل.

نقوش أخرى لرمسيس وقد حفرت فوق نقوش أقدم لأسلافه.

النيل خارجاً من أنفاق السد العالي الستة.

خارطة للنهر.

خارجاً من أنفاق السد العالي، ينساب النهر في شريط رفيع تجري مياهه ببطء، مغذية تربة سوداء وحقولاً خضراء بعضها لا يزيد عرضه عن بضع أمتار والبعض الآخر في مساحة حقول القمح الفرنسية، تمتد عند حافتها الصحراوات الجرداء.

الأقصر وهابو: بانوراما.

على جانبي النهر أيضاً حقول من المعابد والتماثيل، بعضها مدن كاملة مثل الأقصر وهابو، أنتجتها ديانة مادية مستمدة من الحياة، على خلاف الديانات الثلاث الميتافيزيقية التي خرجت من الصحراء العربية. لا ميثولوچيا جبارة أو ملحمة آلهة وإنما غابة من الأساطير العديدة توحد بينها فكرة واحدة هي الكفاح ضد الموت.

نقوش فرعونية لمولد الملك.

ومع ذلك فهذه الديانة هي التي اخترعت، قبل المسيحية بثلاثة آلاف سنة، فكرة مولد الفرعون من «الروحِ القدس»، بينما هو ابن لامرأة من البشر. فيزور آمون الملكة متنكراً في هيئة زوجها الملك لتحمل منه وعندما يولد طفلها تقدمه للملك لا كابنه وإنما كابن الإله.

الإلهة الفرعونية ترضع ابنها – العذراء ترضع السيد المسيح.

فعلى أحد الجدران القديمة يمكن أن نرى الإلهة الفرعونية ANUKET وهي تقوم بإرضاع ابنها الفرعون وإلى جوارها مباشرة صورة للمسيح راقداً على صدر أمه.

ولم يكن الدافع لذلك فقط هو دعم السيطرة على الشعب وإنما أيضاً لأن الفراعنة أنفسهم، كما يحدث في هذه الحالات، صدقوا القصة.

من الجو: النيل يقترب من القاهرة.

عريض وهادئ، تعترضه جزر ضخمة، تحده من الغرب أرض عريضة خضراء وتجثم عليه في الشرق جبال، يقترب النيل من المدينة التي سيتفرع بعدها وينقسم إلى شبكة من القنوات.

مشارف القاهرة من الجنوب: أهرامات وقلاع ومنارات.

بعد سلسلة من الأهرامات والمنارات والقلاع القديمة، تتجلــى الأهرامات الثلاث.

أهرامات الجيزة الثلاث.الهرم الأكبر.

وأكبرها هرم خوفو الذي يرتفع أربعين طابقاً وهو أكبر مبنـــى مثير للذهول على سطح الأرض.

مجموعة نقوش فرعونية تصور ابتكار الكتابة واختراع التقـويم السنوي ورصد النجوم ووضع أسس علـم الفلـك والرياضـيات واختراع مقياس القدم والنظام العشري والقانون والنقود والبريـد والزجاج ونسيج الكتان ووضع المرأة المتميز.

فطوال قرن كامل، كان الشعب الذي، قبل أي جماعة بـشرية أخرى على سطح الأرض، قد ابتكر الكتابة واخترع التقويم السنوي ورصد النجوم ووضع أسس علم الفلك والرياضيات واخترع مقياس القدم والنظام العشري والقانون والنقود والبريد والزجـاج ونـسيج الكتان والذي، أكثر من أي جماعة بشرية أخرى قديمة أو حديثـة، رفع منزلة المرأة...

نقش يمثل عقاب من يلوث النهر بالموت بين فكوك التماسيح.

.. وعاقب من يلوث البيئة بـالموت بـين فكـوك التماسـيح والحرمان من الانتقال إلى العالم الآخر...

رسم تخطيطي يمثل عملية بناء الهرم الأكبر.

.. طوال قرن كان هذا الشعب المتحضر يحمل الأحجار لتصبح توابيت لفراعنة افترسهم جنون العظمة والرعب من الموت.

لقطة مقربة لتماثيل مجموعة من الفراعنة العظام.

ثلاثة أو أربعة ملايين رجل كانت تتم تعبئتهم أربعة شهور كل سنة، عندما يتركهم الفيضان بلا عمل، كي يجلبوا الأحجـــار إلـــى النيل ثم ينقلوها فوق مياهه إلى مكان فوق طريق معبـــد خصيـــصاً حيث يتم تشكيلها ورفعها إلى أعلى بتقنية ماهرة.

مجموعة نقوش فرعونية لمظاهر الحياة المرتبطة بالنيل:

الزراعة، الحصاد (من قبر مينا في نكروبوليس طيبة أو مصطبة موروركا في سقارة)،

كتابة السجلات، الكتابة (الكاتبان، مقبرة حور محب في سقارة)، الاستمتاع بالحياة (الشراب والرقص والغناء).

لكنهم لم يكونوا سوى جماعة بشرية نشأت في أرض مساحتها مليون كيلومتر مربع، أكبر من مساحة إيطاليا وفرنسا مجتمعتين، لكن الجزء الأكبر منها صحراء جرداء، ولهذا تجمع أفرادها على شاطئ النهر الذي تعلقت به حياتهم، ومن جانبه علمهم النظام والطاعة، الفلاحة لا القتال، الكتابة لا الحرب، وقامت الشمس بترويضهم فجعلتهم يحبون الحياة ويتمسكون باستمرارها مما قادهم إلى وضع السجلات.

نقش يمثل الفرعون إلها.

هذه هي الحالة التي جعلت من الفرعون إلها، ومـــن التفكيـــر الواقعي مبدأ.

نقش لمحتويات المقبرة وصورة العالم الآخر. مقبرة سن نيجيم في طيبة: الرجل مع زوجته في حقول العالم الآخر بعد بعثه.

فالعالم الذي خلقه أولئك المبدعون العظام بعد الموت، لم يكن إلا مجرد نسخة من عالمنا الواقعي، تمارس فيه كثير من الأعمال والمهن التي تمارس على الأرض. فلم تكن الحياة التالية إلا امتداداً للحياة الحالية والموت هو بداية وجود مستمر في جو مألوف وسط الأسرة والأصدقاء مما يدل على أن الحياة بالنسبة لهم كانت تجربة يمكن احتمالها ولا تتطلب استبدالاً بالجنة.

نقش لأول ثورة في الدولة القديمة.

وربما لهذا السبب فإن الاستغلال الذي عانوا منه قروناً متتابعة لم يدفعهم إلى الثورة إلا في النادر. وأول ثورة كانت سـنة ٢١٨١ قبل الميلاد، ضد الأغنياء وأغلبهم من الكهنة، ألقيت جثثهم بالآلاف في النيل.وهي الثورة الوحيدة التي قام بها الفلاح المصري خـلال خمسين قرناً والثورة الوحيدة في التاريخ التي نملك بشأنها سـجلات المهزومين وحدهم لأن الكهنة كانوا يحتكرون معرفة لغة الكتابة في ذلك الوقت.

من الأرشيف: ثورة القاهرة ضد بونابرت، ثورة عرابي، ثورة ١٩١٩، ثورة ١٩٤٦.

وفي العصر الحديث ثار المصريون، خلال قرن ونصف قرن خمس مرات، مرة ضد الوجود الفرنسي ١٧٩٨، ومرتين ضد الملكية في ١٨٨١ و١٩٥٢ ومرتين ضد الوجود الإنجليزي في ١٩١٩ و١٩٤٦، وتسارعت الوتيرة في العقود الأخيرة فشهدت البلاد هبات عفوية غير منظمة من جماهير ساخطة في ١٩٦٨، ١٩٧٧، وأخيراً في ١٩٨٥ عندما ثارت الشرطة الخاصة بقمع الثورات!

من الأرشيف: تمرد الأمن المركزي.

*** ٦

القاهرة من الجو.

لمدة مائة وخمسين يوما يجري النيل من خط الاستواء إلى القاهرة التي بدأ نشوئها منذ ١٠٢٥ سنة حتى أصبحت اليوم أكبر مدينة في أفريقيا والعالم العربي على السواء.

خارطة تبين تطور القاهرة في مختلف العصور.

إن تغيرات مجرى النيل عند مدينة القاهرة أثرت علـــى حيـــاة هذه المدينة المليئة بالحياة التي تحولت من موقـــع قلعـــة رومانيـــة (حصن بابليون)...

من الأرشيف: قلعة بابليون.

... إلى مدينة عظيمة اتسعت على حساب الأرض الجديدة التي كانت تكسبها مع تزحزح مجرى النيل ناحية الغرب. فعندما وصل العرب إلى مصر في منتصف القرن السابع الميلادي كانت قلعة بابليون على حافة النهر مباشرة وكذلك كان الموقع الذي اختاره عمرو بن العاص لبناء مسجده.

من الأرشيف: مسجد عمر بن العاص.

نفس المنطقة اليوم.
الشوارع ، الزحام، المارة، اختناقات المرور.

إنها مدينة صاخبة لا تهدأ بالنهار أو الليل وتتميز بحيوية الشارع التي يصنعها أكثر من ثلاثة عشرة ملايين مقيم يزدادون بالنهار بمقدار مليون ونصف مليون آخرين، يتحركون وسط زمامير السيارات واختناقات المرور والسائقين المتهورين والباصات المكدسة والمارة المتدافعين بوجوه متجهمة.

شوارع القاهرة: الأبراج السكنية الضخمة، مطاعم الأمم.

... بين مئات الأبراج السكنية الضخمة من زجاج ومعدن التي تضم مطاعم فخمة...

شوارع القاهرة: المآذن وميكروفوناتها، أسطح منــازل (ملتقطــة مــن القلعة) عليها غسيل منشور، بــائع طعميــة وســط أكــوام القمامة، الناس تقلب بينها.

.. ومئات من مآذن المساجد العالية، بميكروفونات تصم الآذان تطل على أسطح مزدحمة بالغسيل المنشور أو ناس يطهــون فــي الهواء الطلق وسط أكوام القمامة، وآخرون يقلبون بينها بحثاً عــن شيء يمكن أن يوازنوا به دخلاً متواضعاً لا يكفي لملاحقة الارتفاع المستمر في نفقات المعيشة.

هوائيات التليفزيون فوق المقابر، عمارات كاملة بشقق مغلقة، التفاوت الطبقي.

إن سكان القاهرة يتزايدون بمعدل مائة ألف في الشهر، تفتك الأمراض والتلوث بعدد كبير منهم ومع ذلك يضطر الكثيرون للحياة فوق الأسطح أو في المقابر بينما توجد مئات الألوف من الشقق المغلقة! فهي منذ بدأت سياسة الانفتاح الاقتصادي مدينة التفاوت الطبقي الحاد واقتصاد الشطارة غير النظامي.

لقطات من إعلانات التليفزيون الأنيقة. إعــلان عــن التليفزيــون الكوري «واحد للصالون وواحد لأودة النوم».إعــلان المجمعــات السكنية الفاخرة.

تشير أحدث الإحصائيات إلى أن في مصر ٥٠ فرداً تبلغ ثروة كل منهم ما بين مائة و٢٠٠ مليون دولار وألف شخص أقلهم ثروة يملك بين ٥ و١٠ مليون دولار. وطبقة تمثل ٢ في المائة من عــدد السكان تركب السيارات الفارهة وتأكل جلاس وزبادي مــستوردين يكفي ثمن القطعة الواحدة منها لإطعام أسرة فقيرة لمدة أسبوع.

سيارات فاخرة، أطعمة مستوردة.

وتعيش الغالبية تحت خط الفقر بينما ترتفع تكـــاليف المعيـــشة يومياً طبقاً لخطوات تنفيذ طلبات صندوق النقد الدولي، ولهذا فالبلاد مهيأة للانفجار في أية لحظة.

زحام المصلين أمام مسجد غمرة أو القبة أو مصطفى محمود يوم الجمعة.

ولما كان عبد الناصر والسادات قد وجها ضـــربات متتابعـــة لليسار المنظم، فمن الطبيعي أن وجد الكثيرون نوعاً مـــن الـــسلام والطمأنينة داخل المساجد التي تكاثرت بوفرة حيث ينـــشط أتبـــاع درويش ضرير تأويه الولايات المتحدة تحسباً ليـــوم تـــضطر فيـــه للتعامل مع حكومة من أصحاب اللحى.

من الأرشيف: عمر عبد الرحمن في نيويورك.

داخل مسجد صغير، "زاوية".

هنا تروج أكثر الأفكار تخلفاً وأبعد المعلومات عـن الحقيقـة بشأن التعاليم الإسلامية الصحيحة، ويتم إذكاء روح التعصب ضـد الأقباط الذين يؤلفون عشرة بالمائة من عدد السكان...

الزحام خارج الكاتدرائية يوم الأحد. داخل كنيسة أثناء القداس.

محجبات في الطريق.

... وإقناع المرأة بارتداء الحجاب والبقاء في المنــزل وهــي صورة مختلفة تماماً عن صورتها في أفلام الستينيات والخمسينيات المصرية.

من الأرشيف: لقطات من أفلام الستينيات والخمسينيات تبين وضع المرأة وملابسها.

من الطائرة: النيل بعد القاهرة يتفرع.

يتفرع النيل بعد القاهرة خالقاً، في آخر مائتي كيلـومتر لـه، أرضاً بالغة الخصوبة عمرها أكثر من ١٣ ألف سنة: الـدلتا التـي أصبحت فكرة فصارت كل دلتا في العالم على اسمها.

لوحة سيتي الأول وأبو منجل يعطيه الحياة، من معبد سيتي الأول في أبيدوس.

لن نجد اليوم في الدلتا أثر الطائر المقدس الذي مازال يحلق فوق منابع النيل والذي كان يتمتع هنا في الماضي بسطوة الآلهة. كما إننا لن نرى أيضاً البقرة ذات القرنين الطويلين ولا التمساح وفرس النهر التي استمتعت في الماضي بهذه المكانة. فقد عرفت الدلتا كل أنواع الآلهة.

لقطات متتابعة للآلهة المصرية القديمة.

وكل أنواع الغزاة أيضاً!

من الأرشيف: لقطات متتابعة تصور تعاقب الفرس والإغريق والرومان .

فطوال ألف سنة سيطر الفرس والإغريق والرومان بقوة السلاح وأمعنوا في استنزاف المصريين ففرضوا عليهم كافة أنواع الضرائب. ولهذا كان من الطبيعي أن يتبع الفلاحون المصريون أنصار الإله الجديد الذين التفوا حول درويش عاش وحده في الصحراء تسعين عاماً هو بولس المصري.

القديس بولس. سانت أنطوني وديره.

وأسس تابعه المخلص، سانت أنطوني، أول دير مسيحي في التاريخ.

آثار الدمار على المعابد الفرعونية.

وعندما تعرض المسيحيون لاضـــطهاد رومـــا تفـــشى بيـــنهم التعصب الذي دفع غلاتهم إلى تدمير المعابد الفرعونية.

من الأرشيف: لقطات متتابعة تصور عصور التاريخ الإسلامي في مصر: خارطة لبدايات القاهرة (الفسطاط)، عصور المماليك، مساجد المماليك ثم المساجد التركية.

وعندما ظهر العرب على الحدود الشرقية سنة ٦٤٠ ميلادية رحب بهم الفلاحون المسيحيون أي الأقباط، وعاشت مصر خمسة قرون في ظل حكام إسلاميين مستقلين ثم حل محلهم العبيد (المماليك) الذين حكموا قرابة ثلاثة قرون، وبلغ الظلام والتعصب أوجهما في ظل الحكم التركي الطويل الذي استمر قرابة ثلاثة قرون.

مشهد ريفي معاصر : حمار ينتظر محملا بالتبن، فلاحون يشربون الشاي أو يدخنون الجوزة على صوت ماكينة حديثة إلـى جانـب الشادوف والساقية.

إن مثلث الخصوبة المعروف باسم الدلتا يضم بقعاً من أجمـل الأماكن في البلاد، حيث يمكن الاستمتاع بمشهد ريفي أصيل وسـط طبيعة ساحرة، وبين ماكينات حديثة تعمل بالـديزل أو الموتـورات الكهربائية إلى جانب الشادوف والساقية اللتين ابتكرهما الفراعنـة. كما يضم أيضاً بقعاً من أكثر الأماكن مدعاة للحزن.

مصب النيل عند رشيد.

ففوق الشاطئ الرملي عند مصب أحـد الفـرعين الرئيـسيين للنيل، وهو فرع رشيد، وقرب المدينة التي اكتشف فيها شـامبليون الحجر الشهير سنة ١٧٩٩، تبدو بلـدة أشـباح ويطالعنـا مـشهد حزين....

منازل مهدمة ونوافذ محطمة وأسلاك كهربائية أو تليفونية مقطوعة. منزل مهجور يكاد يسقط في البحر.

هذا المنزل كان يقطنه سكان في العام الماضي. فالبحر يزحف إلى الداخل ويلتهم قطعة من الدلتا كل يوم. ويوجه البعض الاتهام للسد العالي بأنه احتجز خلفه الغرين الذي كان يغذي الشواطئ، بينما يقول آخرون أن هذا الغرين لم يكن يصل أبداً إلى شاطئ البحر المتوسط، وأن الشاطئ المصري يتراجع منذ منتصف القرن التاسع عشر تحت تأثير التيارات البحرية. وعلى أي حال فلاشك أن احتجاز السد العالي للغرين قد أثر على شواطئ النيل ذاته. وهي نتيجة لم تغب عن ذهن واضعي مشروع السد، فخططوا لمواجهتها بمجموعة من المشروعات الإضافية لم يقيض لها أن تتم إذ تم تأجيلها عندما وقع العدوان الإسرائيلي على مصر ١٩٦٧.

من الأرشيف: عدوان ١٩٦٧.

فقد وظفت كل إمكانيات البلاد لمواجهة الأضرار التي سـببها ولاستعادة الأراضي التي استولت عليها القوات الإسرائيلية.

خارطة للأراضي المصرية التي استولت عليها إسرائيل.

من الأرشيف: توقيع معاهدة كامب ديفيد.

وعندما وقعت بين البلدين معاهدة سلام في ١٩٧٨ كانت المشاكل التي تراكمت قد تفاقمت حتى أصبحت عسيرة الحل. نفس الخصلة التقليدية التي تطالعنا عند المنابع.

من الأرشيف: نقش، أو رسم حديث يصور خـروج اليهـود مـن مصر في عهد مرنبتاح.

لقد لعب اليهود دائماً دوراً مصيرياً بالنسبة لمصر. ومنذ خرج بهم نبيهم من مصر سنة ١٢٢٣ ق.م. هرباً من اضطهاد الفرعـون مرنبتاح وضل بهم الطريق في صـحراء سـيناء أربعـين عامـا، وصورة النيل الساحرة لا تغيب عن خيالهم.

خارطة سيناء والطريق الذي اتبعه اليهود.

من الأرشيف: هرتزل وروتشيلد.

فبعد مشروع لتوطينهم في أوغندا ناقشه هيرتزل مع المليونير الصهيوني روتشيلد في مأدبة غداء في لندن في ٤ يوليـــو ١٩٠٢، جاء الزعيم الصهيوني يوم ٣٢ مارس ١٩٠٣ إلى فندق شبرد القديم في القاهرة...

من الأرشيف: هرتزل في القاهرة/ فندق شـبرد القـديم/ كرومـر وبطرس غالي.

.. ليلتقي مع المندوب السـامي البريطـاني اللـورد كرومـر ووزير الخارجية المصري بطرس غالي باشا، جد الأمـين العـام الحالي للأمم المتحدة، ويعرض عليهما مشروعاً لتوطين اليهود فـي سيناء يتضمن توصيل مياه النيل إليها بقنوات أسفل قناة السويس.

خارطة سيناء وقناة السويس والقنوات المقترحة.

لم يلق المشروع ترحيباً من كرومر على عكس الوزير المصري. وجرى توطين اليهود بعد ذلك في فلسطين. لكن حلم النيل لم يختف، وأدى إلى ثلاثة حروب متعاقبة. وفي أعقاب اتفاقية السلام في ١٩٧٨ وانسحاب القوات الإسرائيلية من سيناء، كتبت جريدة معاريف الإسرائيلية تقول: «إن مشاكل المياه لدى إسرائيل يمكن أن تحل على المدى البعيد بواسطة واحد في المائة من مياه النيل تمر في قنوات أسفل قناة السويس». وبذلك لم يكد يجف مداد معاهدة السلام حتى وضعت أسس الحرب القادمة.

حديث مع مسئول ري مصري: عبد الهادي راضي مثلاً أو دكتور رشدي سعيد.

سؤال: هل صحيح أن الفلاح المصري يعاني من انخفاض معدلات الري مما يجعله يروي أرضه بمياه المصارف رغم خطورة ذلك على الزراعة والأرض ذاتها، وهل سنواجه عجزاً في مواردنا المائية في السنوات القليلة القادمة؟

لقطات متتابعة لمصبات المصانع على طول النيل.

سؤال: إن ٦٠٠ مصنع على النيل من أسوان حتى البحر الأبيض تصب فيه ٨٠٠ مليون متر مكعب سنوياً من المخلفات. وقد قدر مؤتمر لمكافحة التلوث عقد في القاهرة أخيراً أن نسبة الرصاص في مياه النيل تزيد عن ٦٥ في المائة من النسبة المسموح بها دولياً، وأن حجم المخلفات السامة السائلة علي طول نهر النيل قد بلغ ثلاثة كيلومترات و٥٧٠ متراً إلى جانب مليوني متر مكعب سنوياً من مياه المجاري يتم صرفها في مياه النيل وفروعه، فضلاً عن ١٧ مليار متر مكعب سنوياً من مخلفات الصرف الزراعي تحتوي على مواد صلبة من الأسمدة والكيماويات التي لا تذوب في الماء وتؤدي إلى ٦٠٠ حالة سنوية من أمراض السرطان والفشل الكلوي. فما هو تعليقك وهل هناك خطة لوقف تلوث المصانع والصرف الصحي حتى يعود النيل نظيفاً بغير تلوث؟

من الأرشيف: التسجيل التليفزيوني لأغنية محمد عبد الوهاب «النهر الخالد» .

لقد تغنى أشهر مغني في مصر والعالم العربي قاطبة، «محمد عبد الوهاب» بنهر النيل في عدة أغان رومانسية، أشهرها تحمل اسم «النهر الخالد».

الكاميرا تتجه من المصب نحو البحر المتوسط.

لكن التطورات الأخيرة في حياة النهر العظيم، من المنبع إلـــى المصب، تحيط بكثير من الشك مستقبله القريب.

من مقابلة منصور خالد.

** أنا متفائل بمستقبل أفريقيا. فالسنوات الأخيرة شهدت ميلاد الاستقلال الثاني على أسس لا عسكرية وتعددية. أمامك ما حدث في جنوب أفريقيا: نظام ديموقراطي يقوم على صيغة التعايش السلمي بين كل القوميات. بداية سليمة، على الرغم من مرارة الماضي، أثرت على المنطقة وعلى تطورات الأحداث في ليسوتو وأنجولا وموزمبيق.

خارطة مشروعات تخزيـن المـياه علـى نهر النيـل.

صوت وحيد في البرية؟ إن الإمكانيـات المائيـة والزراعيـة والكهربائية المتاحة لدول النيل لا حد لها. فهناك فائض كبيـر فـي الماء وفي الأرض...

الكاميرا تواجه البحر الذي بلا نهاية.

... لكن استغلال هذه الإمكانيات يتطلب درجة من التنظيم تعجز عنها هذه الدول. فهي مازالت تتخبط في إخطبوط من المشاكل المتخلفة عن العهد الاستعماري، عاجزة عن تبني رؤية لمستقبلها ولدورها في العالم. ووقتها ضائع في حروب ومنازعات قبلية وعرقية ودينية. وسياساتها الاقتصادية تدور حول الاقتراض لحل أزماتها الوقتية والمتعاقبة ومد اليد طلباً للمعونات، بينما الأموال ينهبها الديناصورات وتنزح منها بمعدلات تتجاوز بكثير مجمل ديونها.

إن الصورة لجد مروعة وإن لم تتغير في أقرب وقت فلن تكون هناك سوى الكارثة!

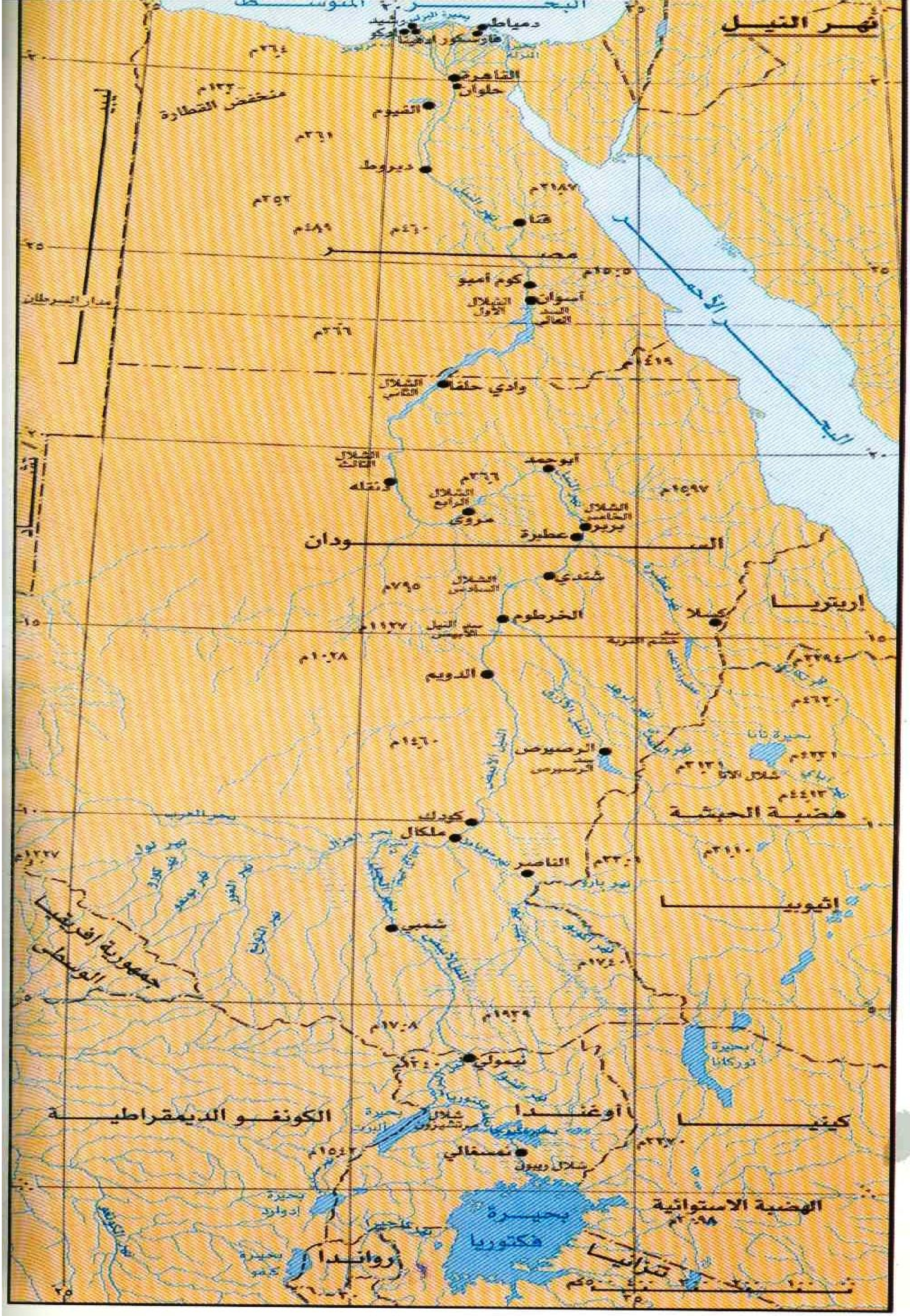
ملف مصور



المؤلف على خط الاستواء في أوغندا



جبال رونزوري



حوض نهر النيل



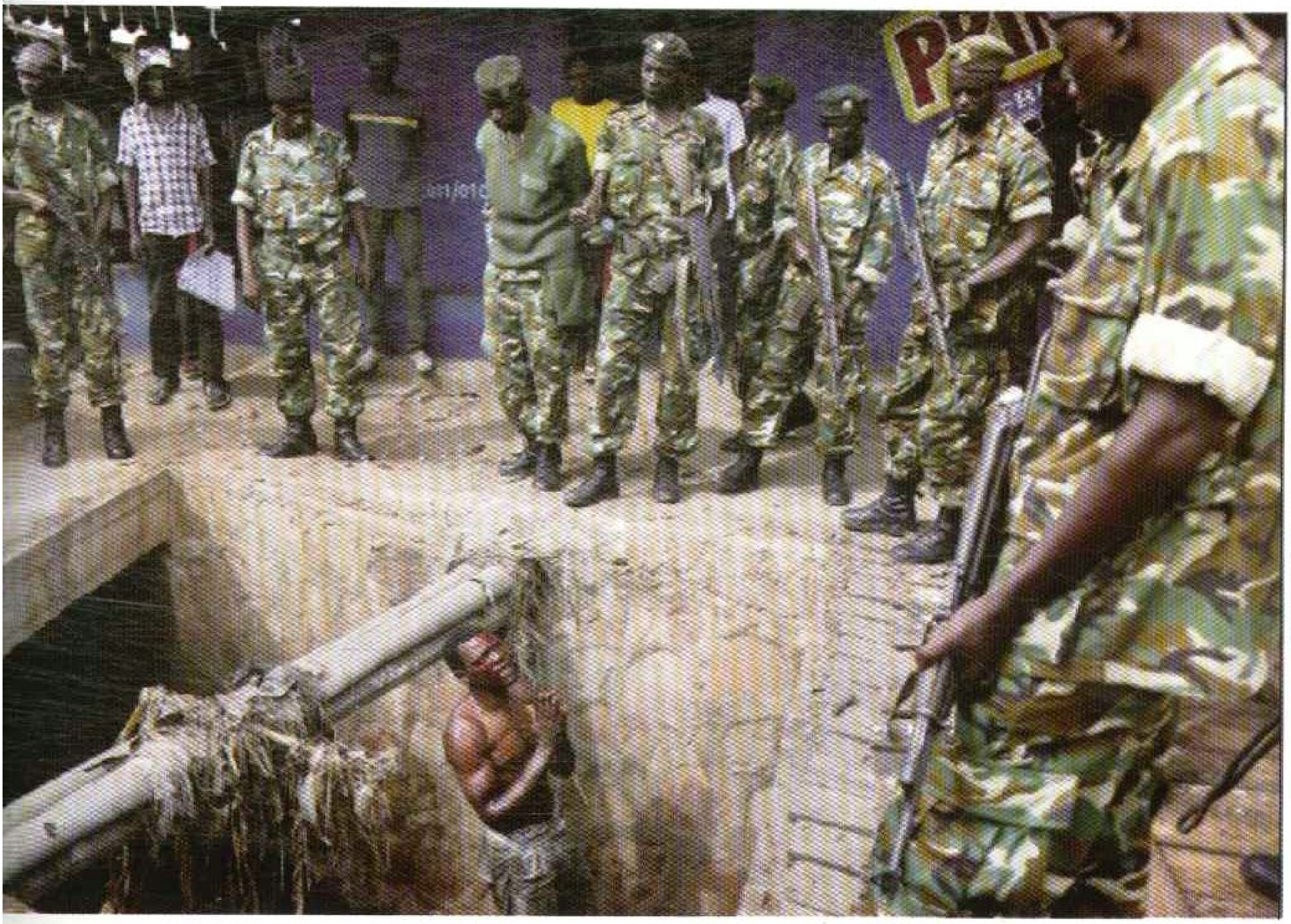
نصب تذكاري لضحايا مذابح رواندا وبوروندي
«هنا يرقد ٢٨٢٧ ضحية. أغسطس ١٩٩٤»



مخلفات المذابح



مطاردة بكل الأسلحة



التوسل لم يُجد



حتى الحوامل



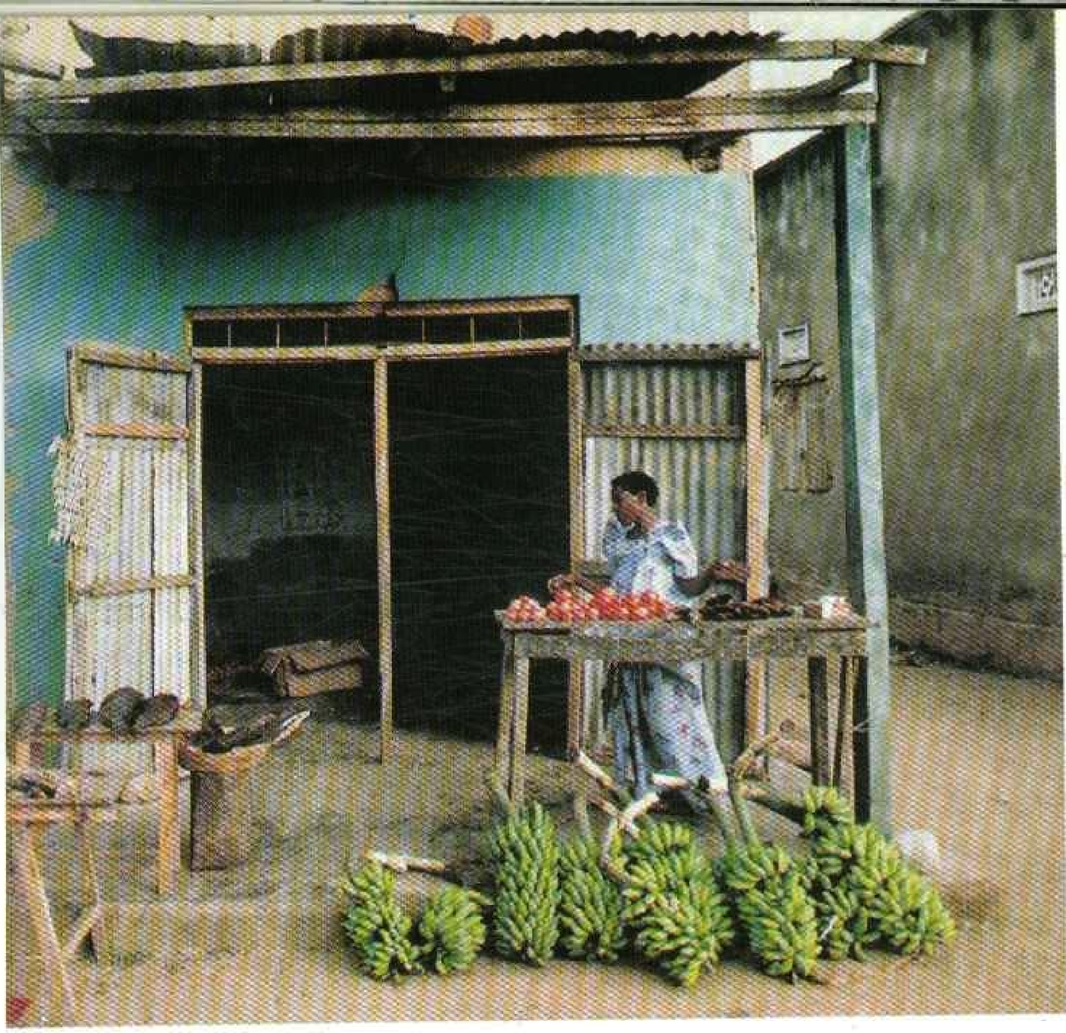
... والأطفال



أبو منجل المقدس



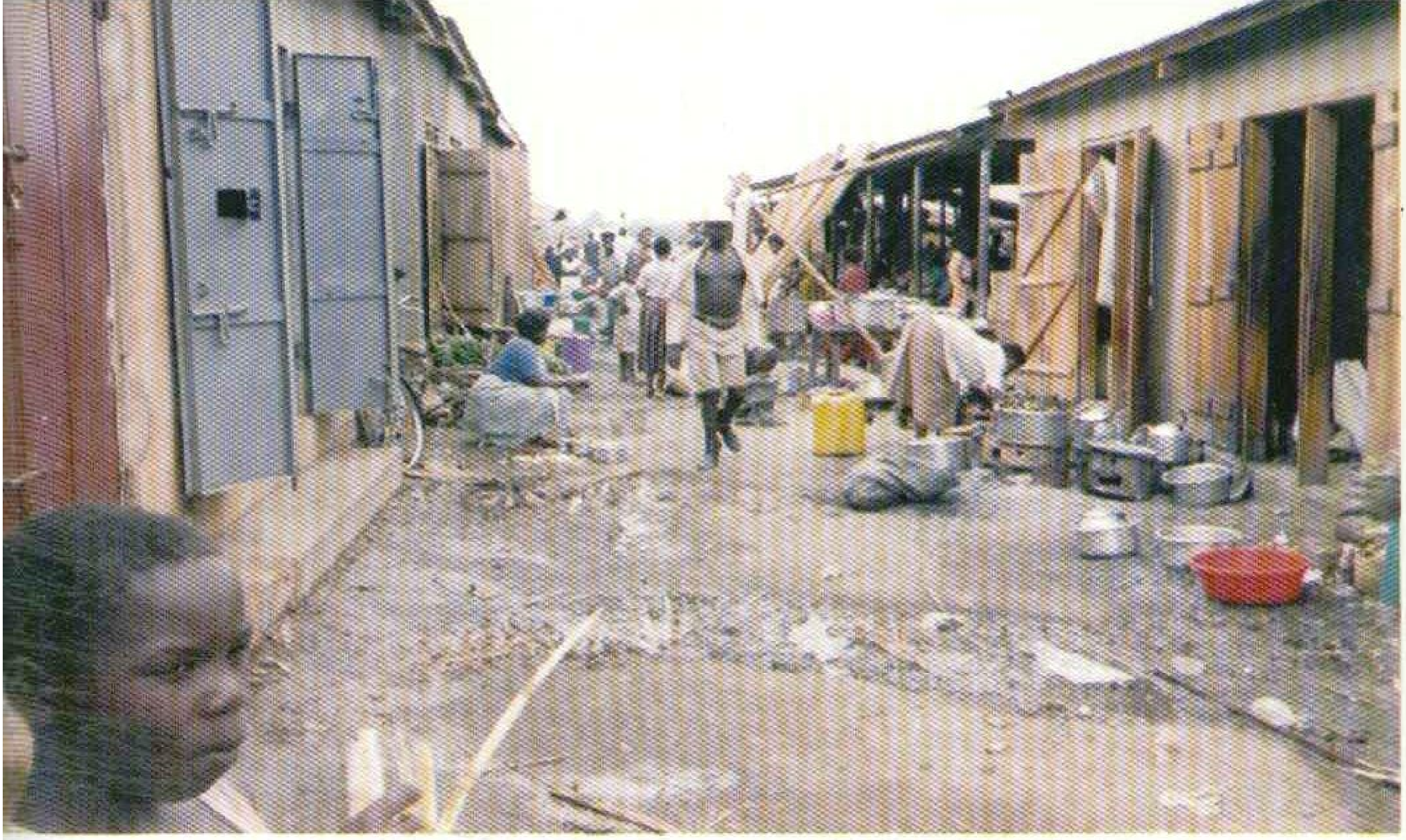
وسط العاصمة الأوغندية كمبالا في ١٩٩٤



الطريق من كمبالا عاصمة أوغندا إلى شاطئ بحيرة فيكتوريا



على شاطئ بحيرة فيكتوريا في أوغندا





أبطال الحلم الأفريقي في ١٩٦٤
چومو كينياتا، ميلتون أوبوتي، چوليوس نيريري



١٩٦٨: أوبوتي وخلفه قائد جيشه عيدي أمين الشاويش السابق في الجيش الإنجليزي



ثم انقلب الشاويش على رئيسه



وشكل كتيبة لإعدام أنصار أوبوتي



الرئيس عيدي أمين يمرح ...



.. بينما تتكوم جثث ضحاياه



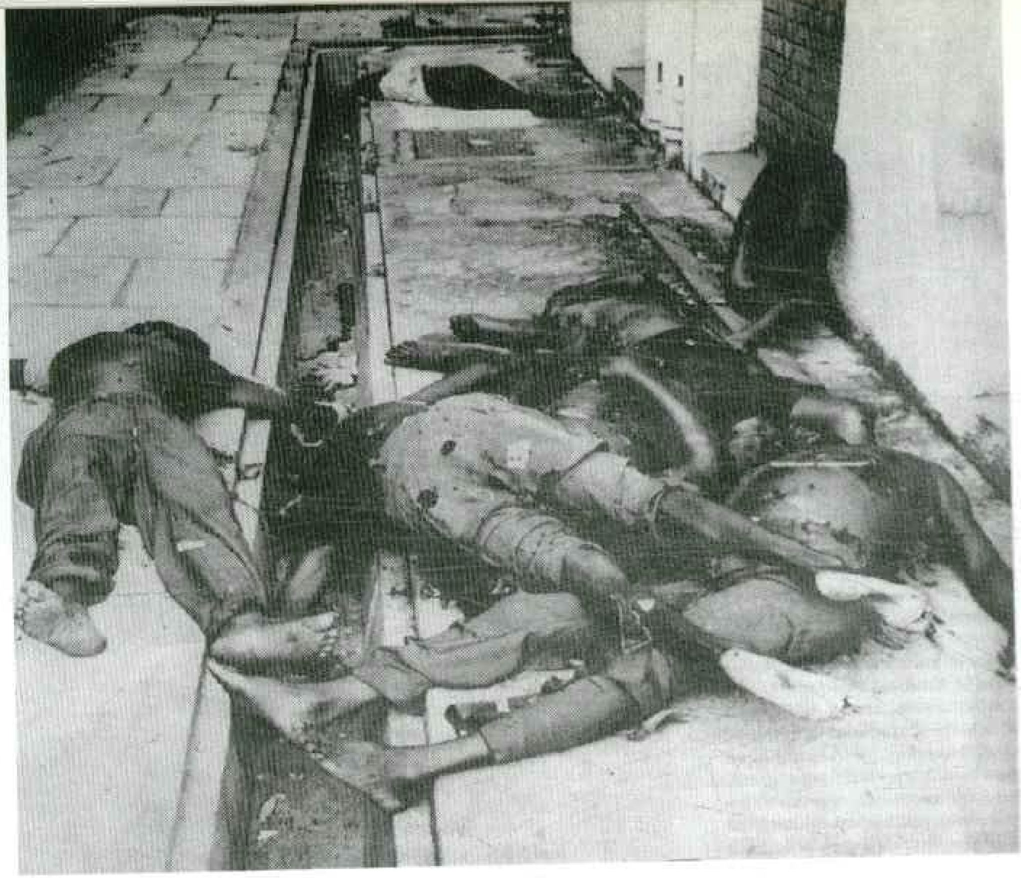
.. بعد تعذيبهم



يرغم رجال الأعمال البيض على حمله



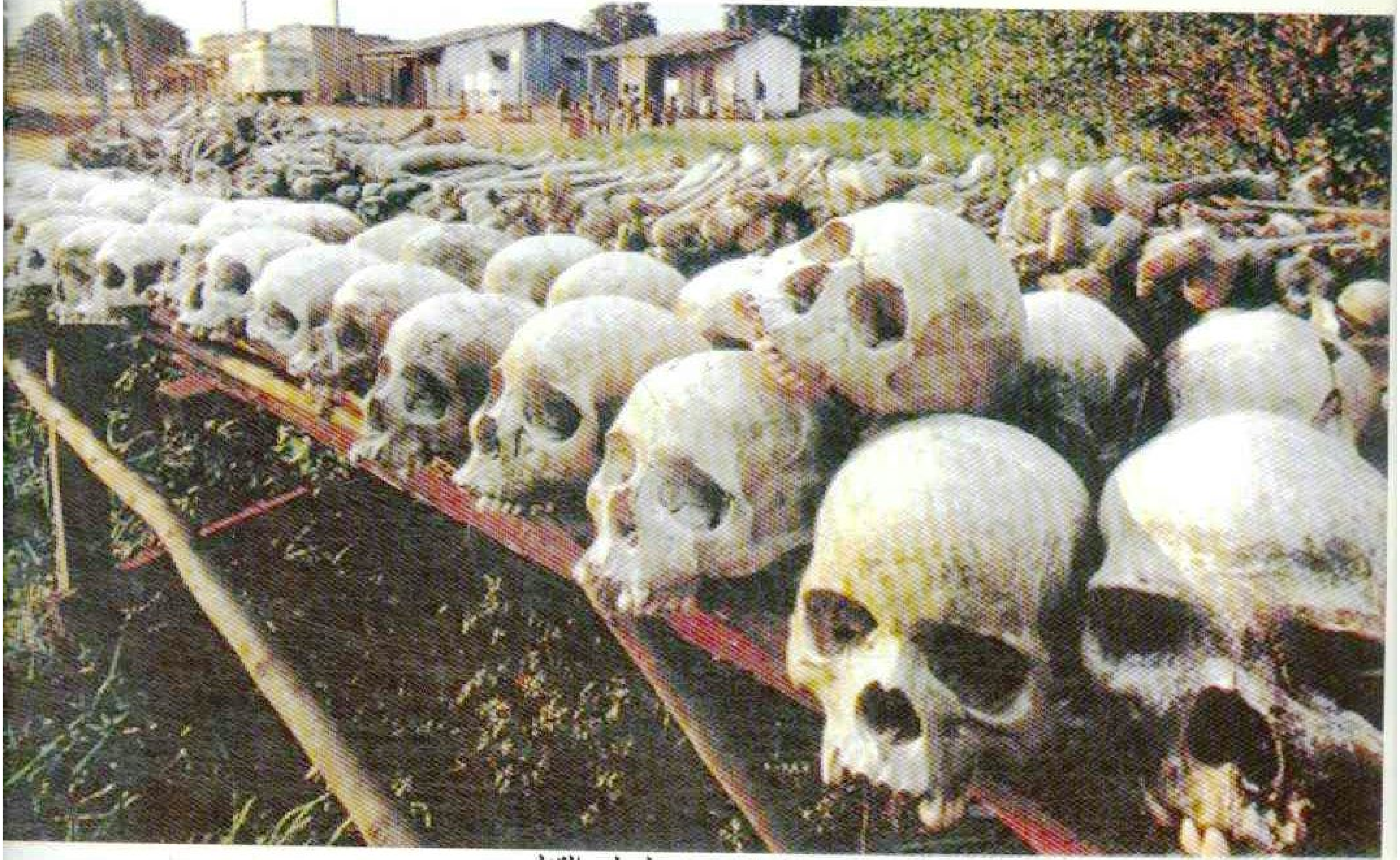
بينما يجري إعدام الآلاف من معارضيه.
صورة من زنزانة تحت الأرض في مكتب مباحث كمبالا

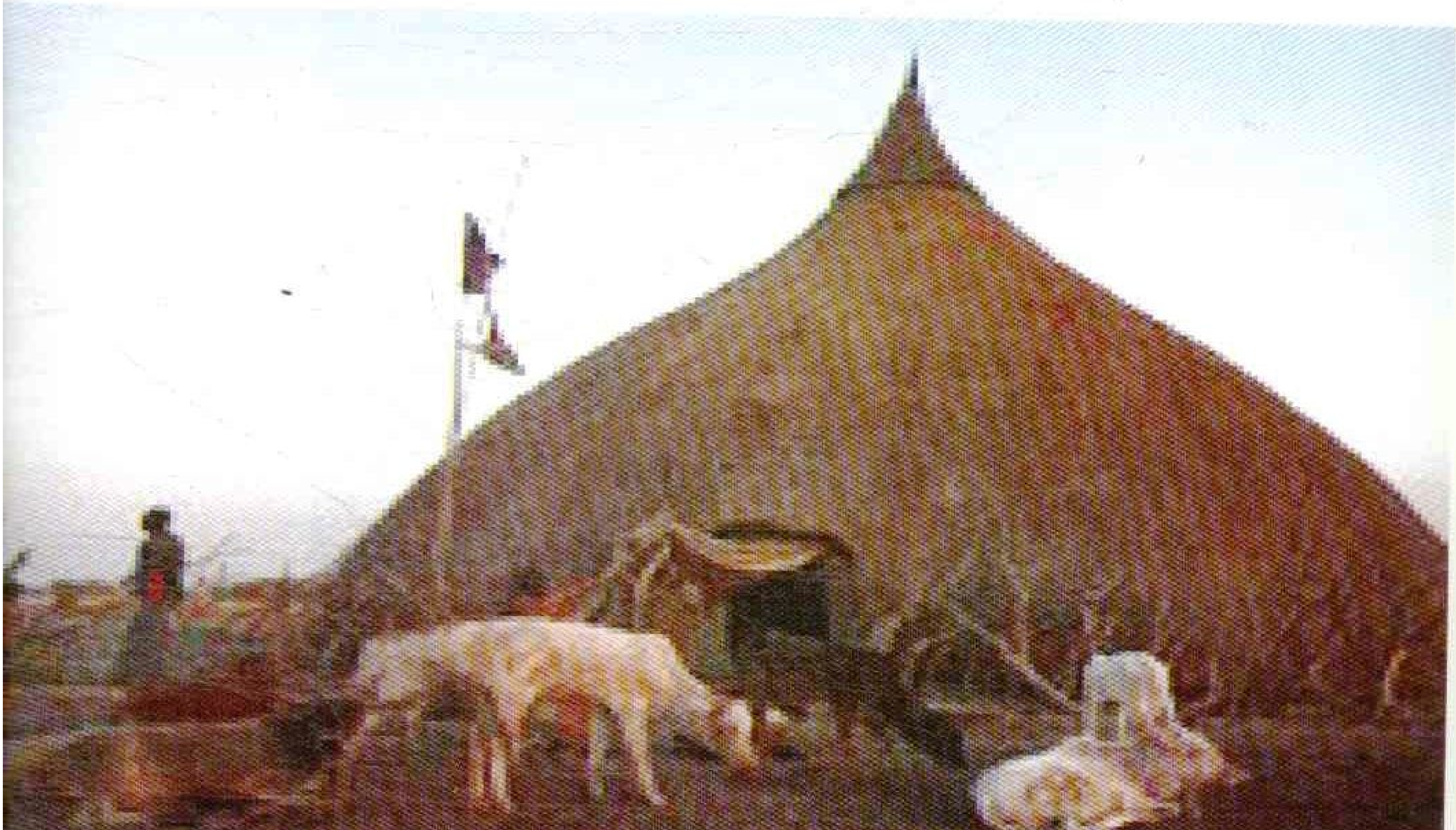


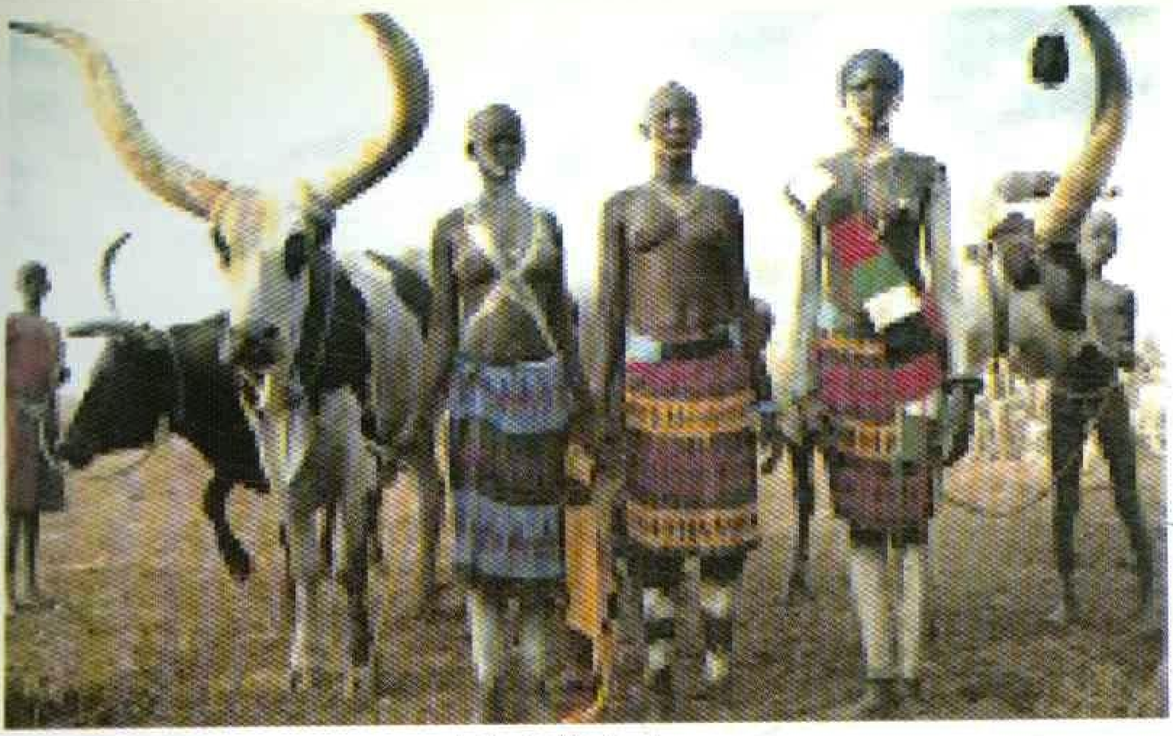
.. وفي مكتب مباحث نكاسيرو ١٩٧٩

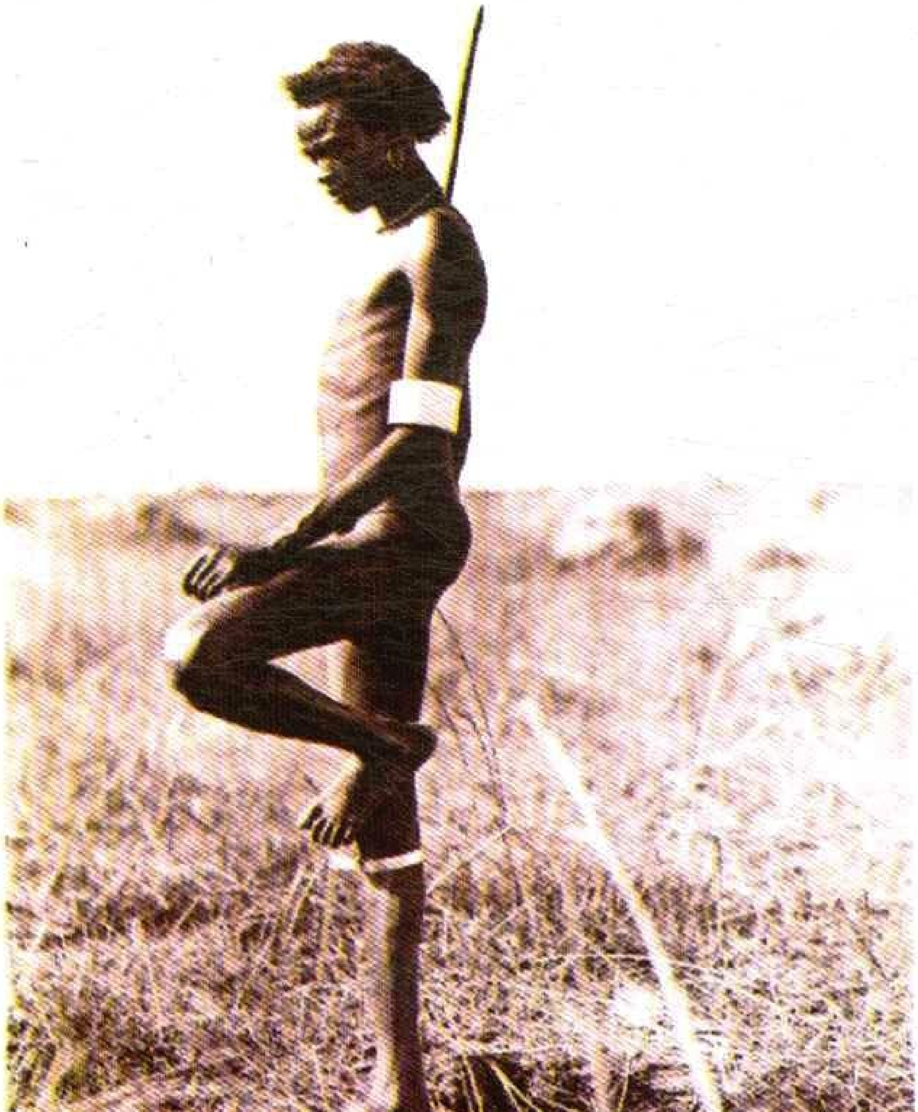


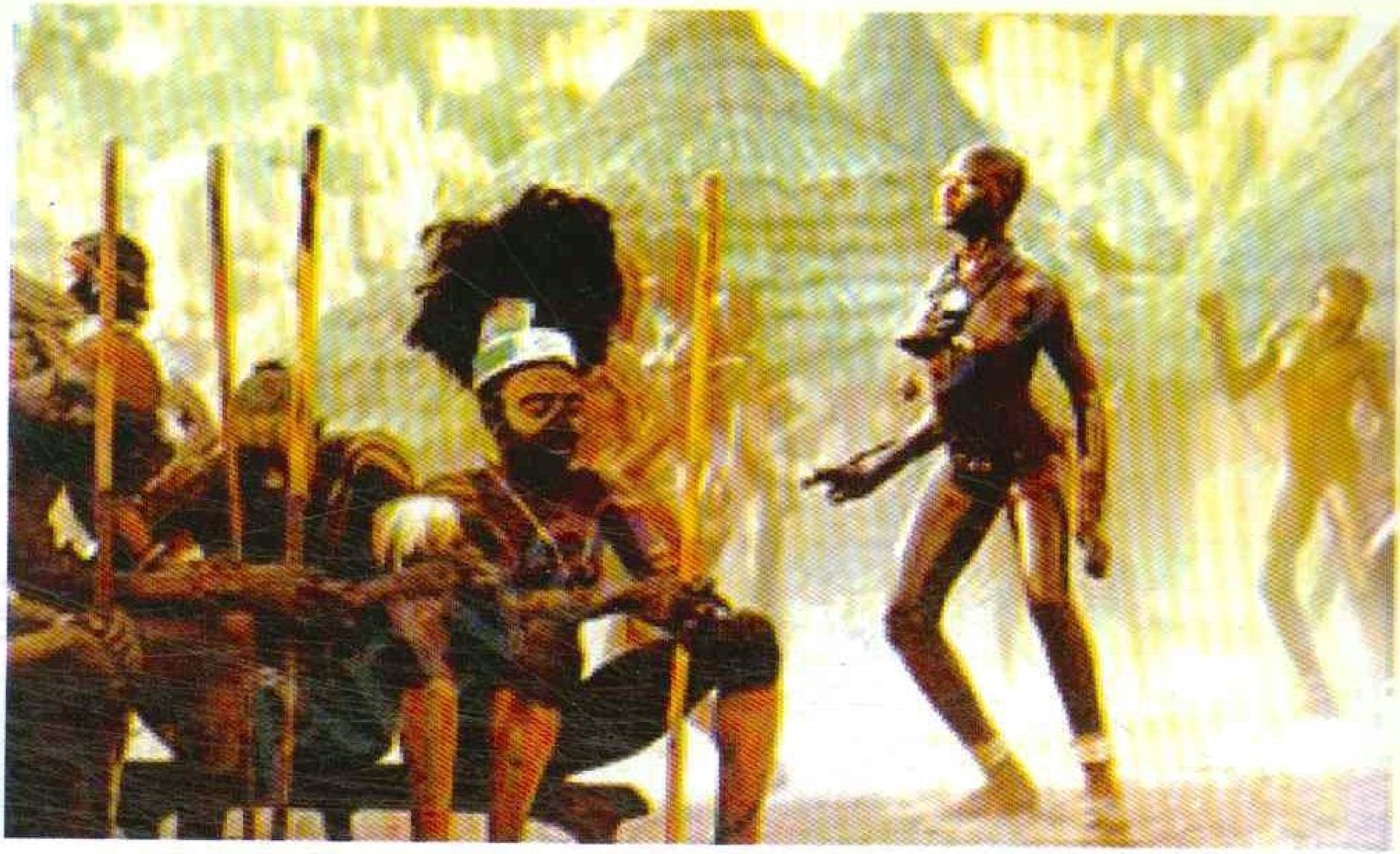
ثم عاد أوبوتي إلى السلطة في ديسمبر ١٩٨٠


واستمر مسلسل القتل

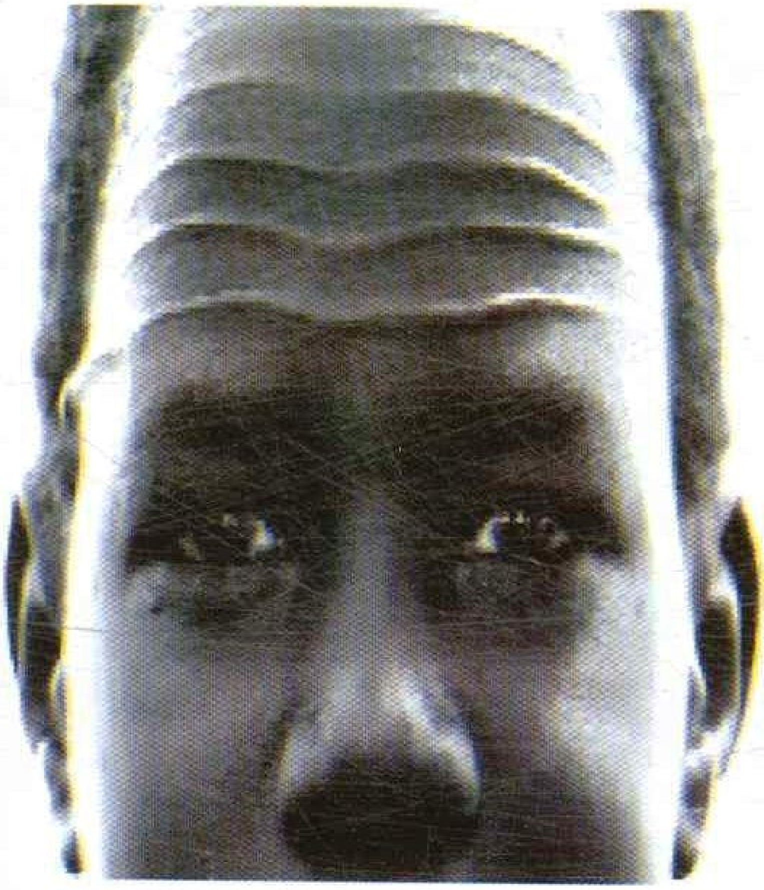

أكواخ قبائل جنوب السودان


نساء قبيلة الدنكا

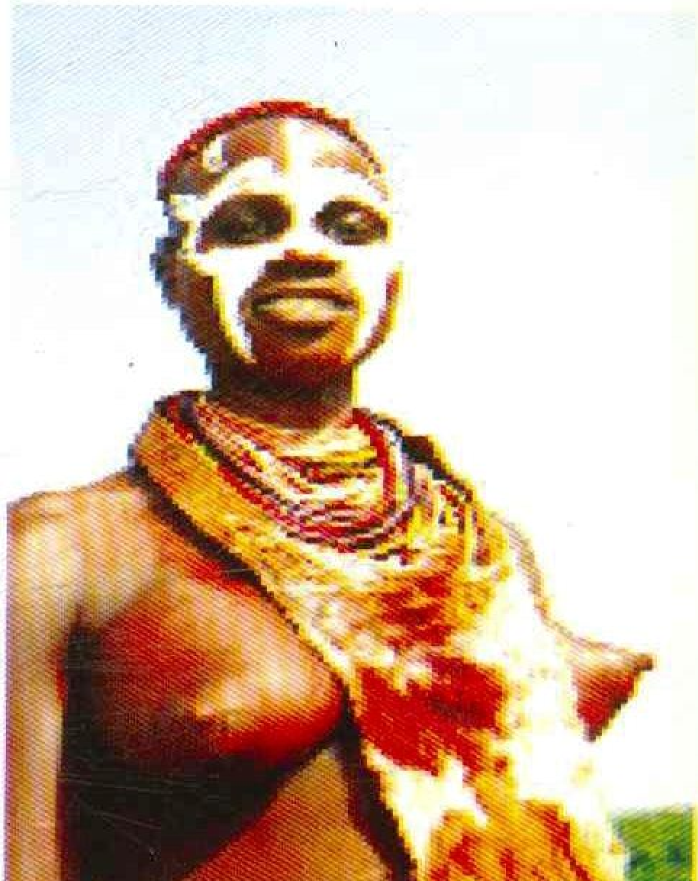

رشاقة رجال الدنكا



الرقص أمام ملك الشيلوك



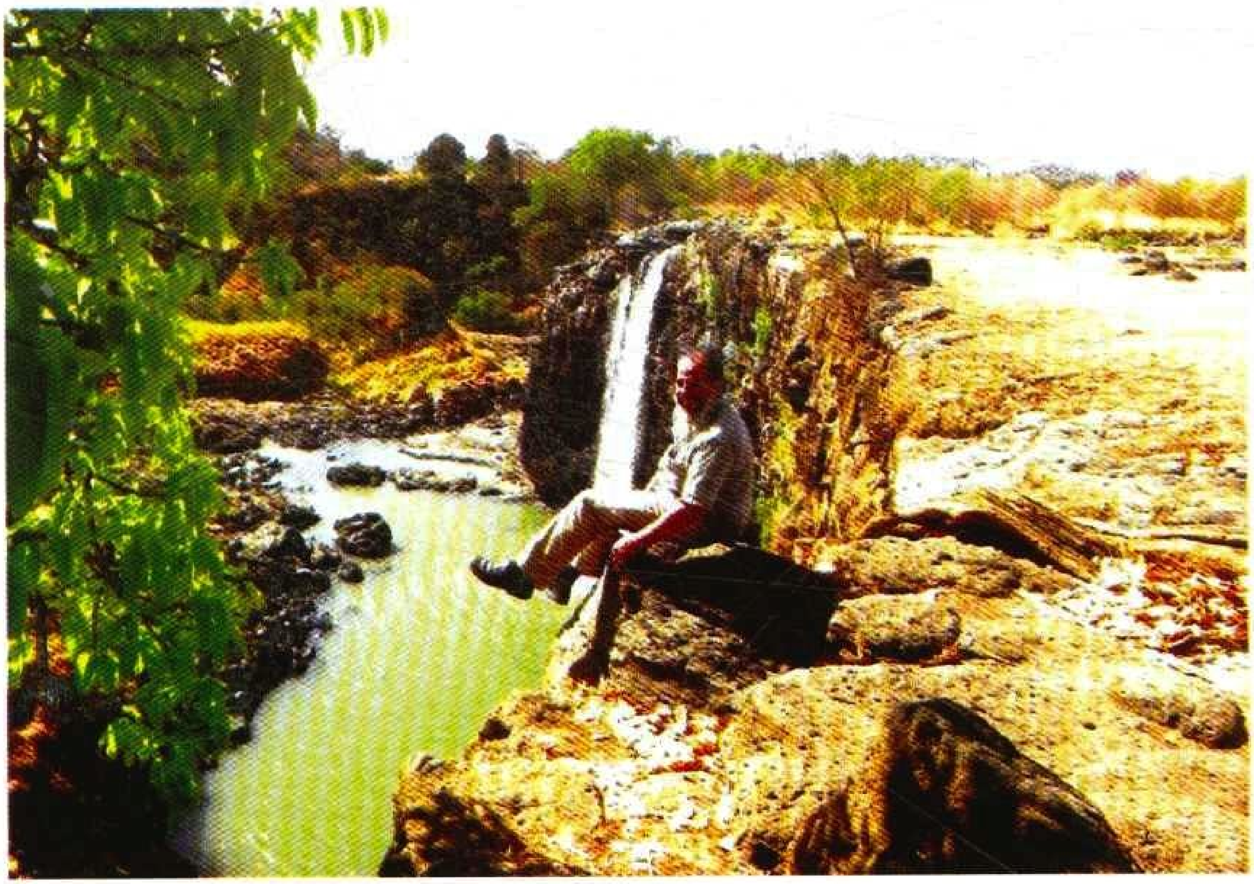
نقوش الوجه لدى القبائل النيلية



فتاة من قبيلة موندراي



خارطة إثيوبيا



منبع النيل الأزرق من بحيرة تانا



التقاط الذهب من المياه .. حرفة تاريخية في إثيوبيا



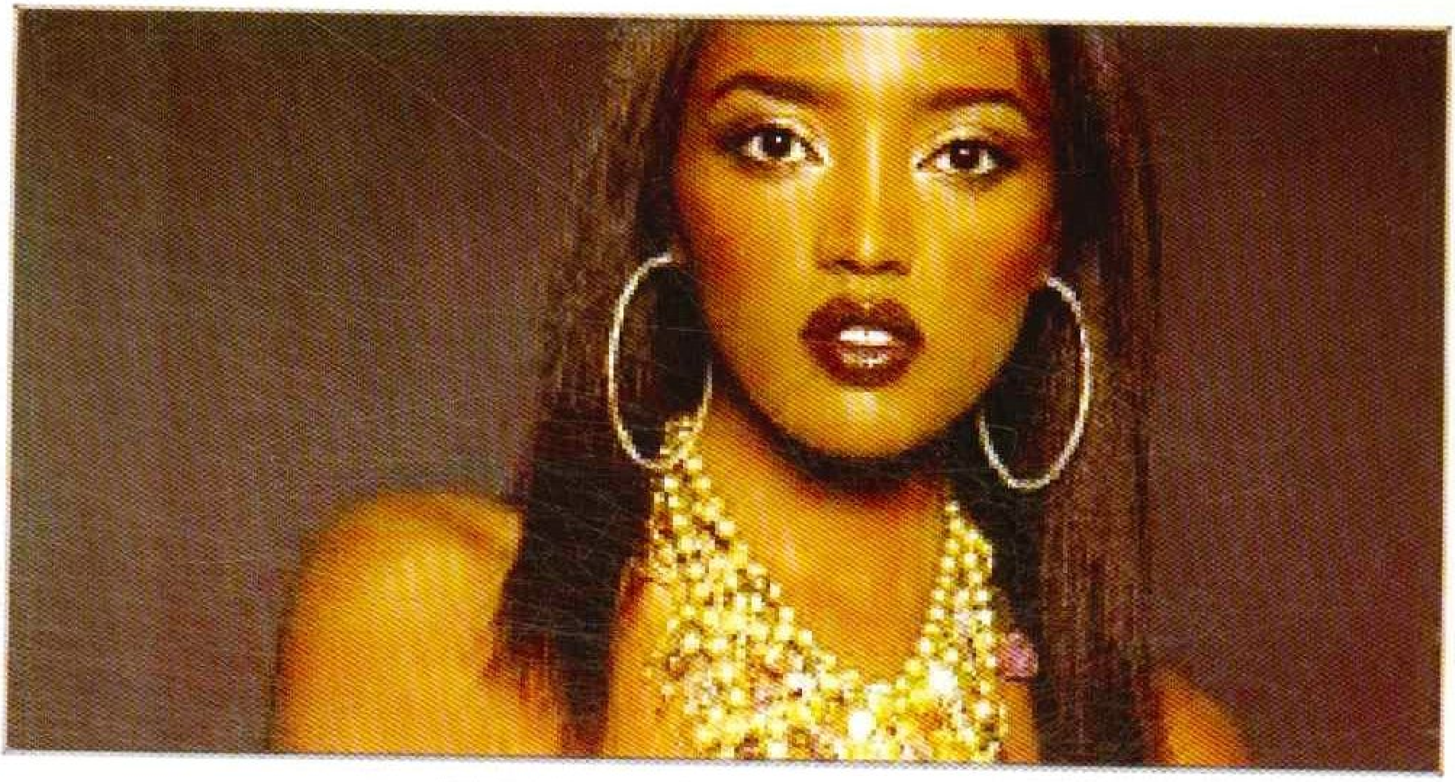
الإمبراطور هيلا سلاسي يستقبل زعماء أفريقيا الثوار في ١٩٦٣



نتنياهو يستقبل يهود إثيوبيا (الفلاشا)



وسرعان ما ضجوا من التمييز العنصري ضدهم



بينما اندمج بعضهم في المجتمع الإسرائيلي



التقاء النيل الأزرق بالنيل الأبيض عند الخرطوم



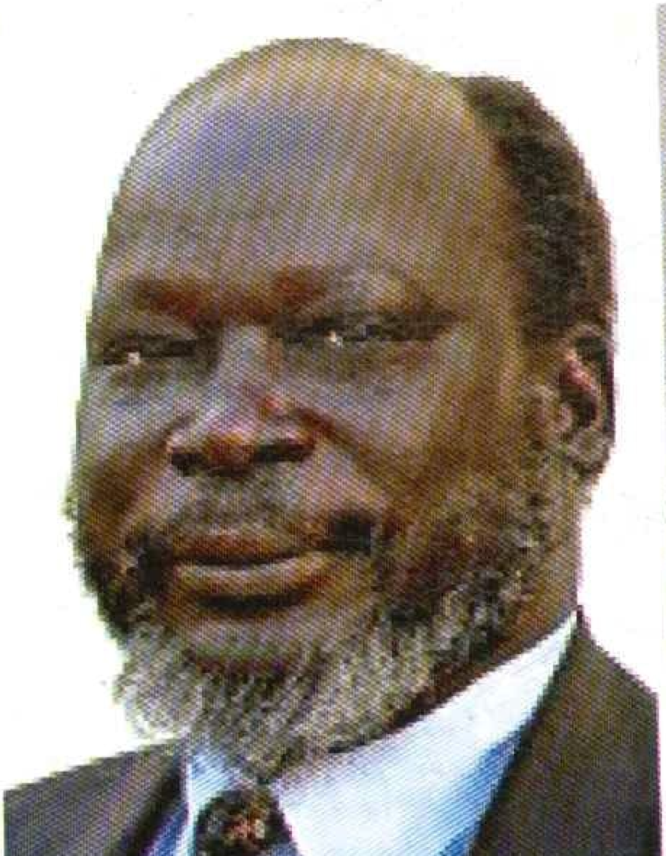
زعيم الثورة المهدية



الحاكم الإنجليزي جوردون باشا



بد الخالق محجوب شهيد الحزب الشيوعي السوداني



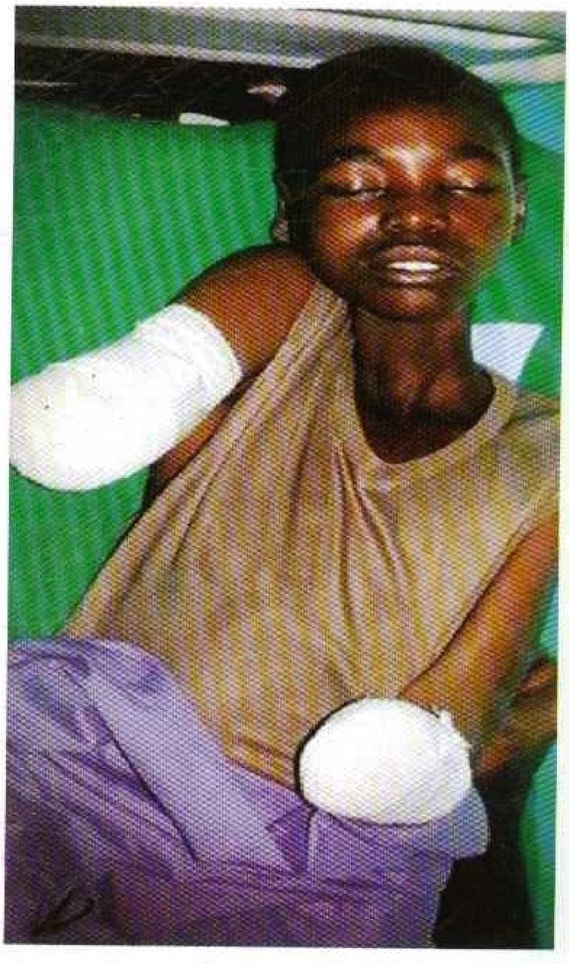
چون جرنق زعيم الجبهة الشعبية



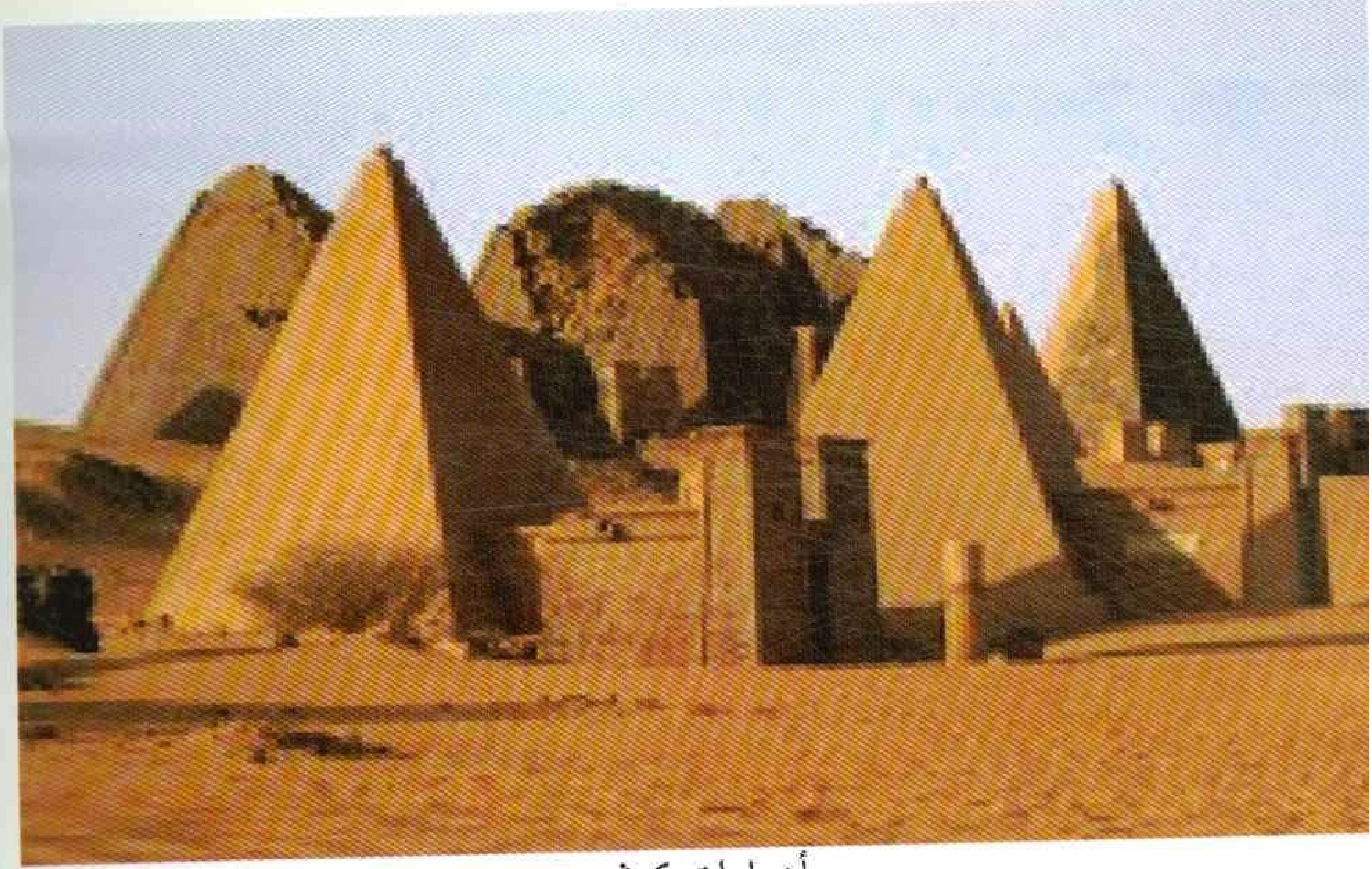
الحياة على ضفاف قناة جونجلي



... وأرجلهم



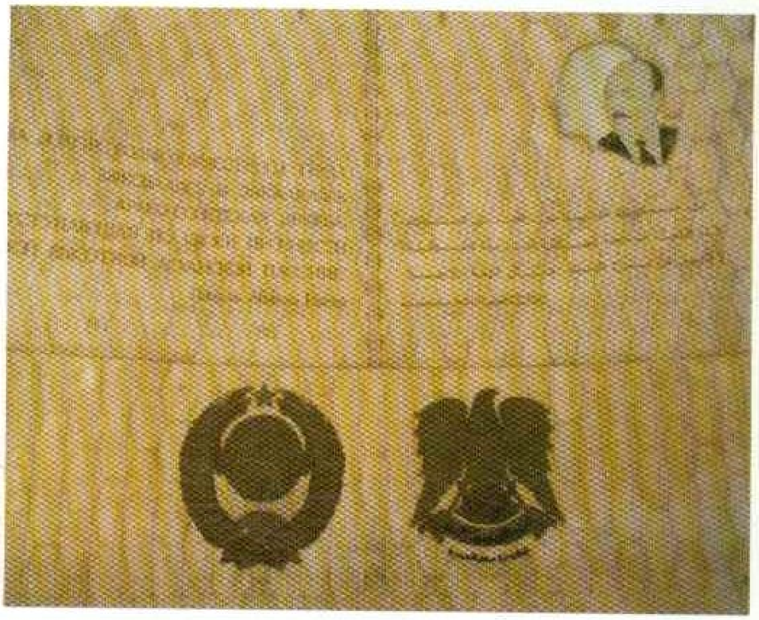
لم يسلم الأطفال من تطبيق الشريعة
الإسلامية على أيديهم ...



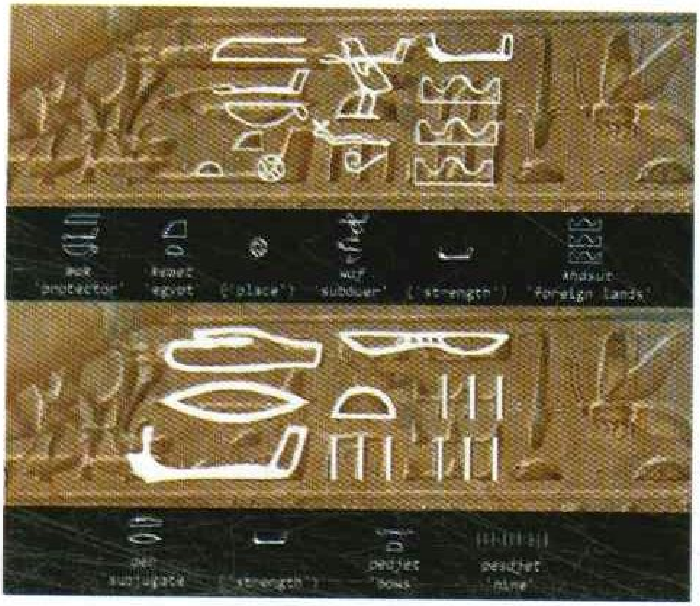
أهرامات كوش



عبد الناصر وخروشوف يطلقون السد العالي



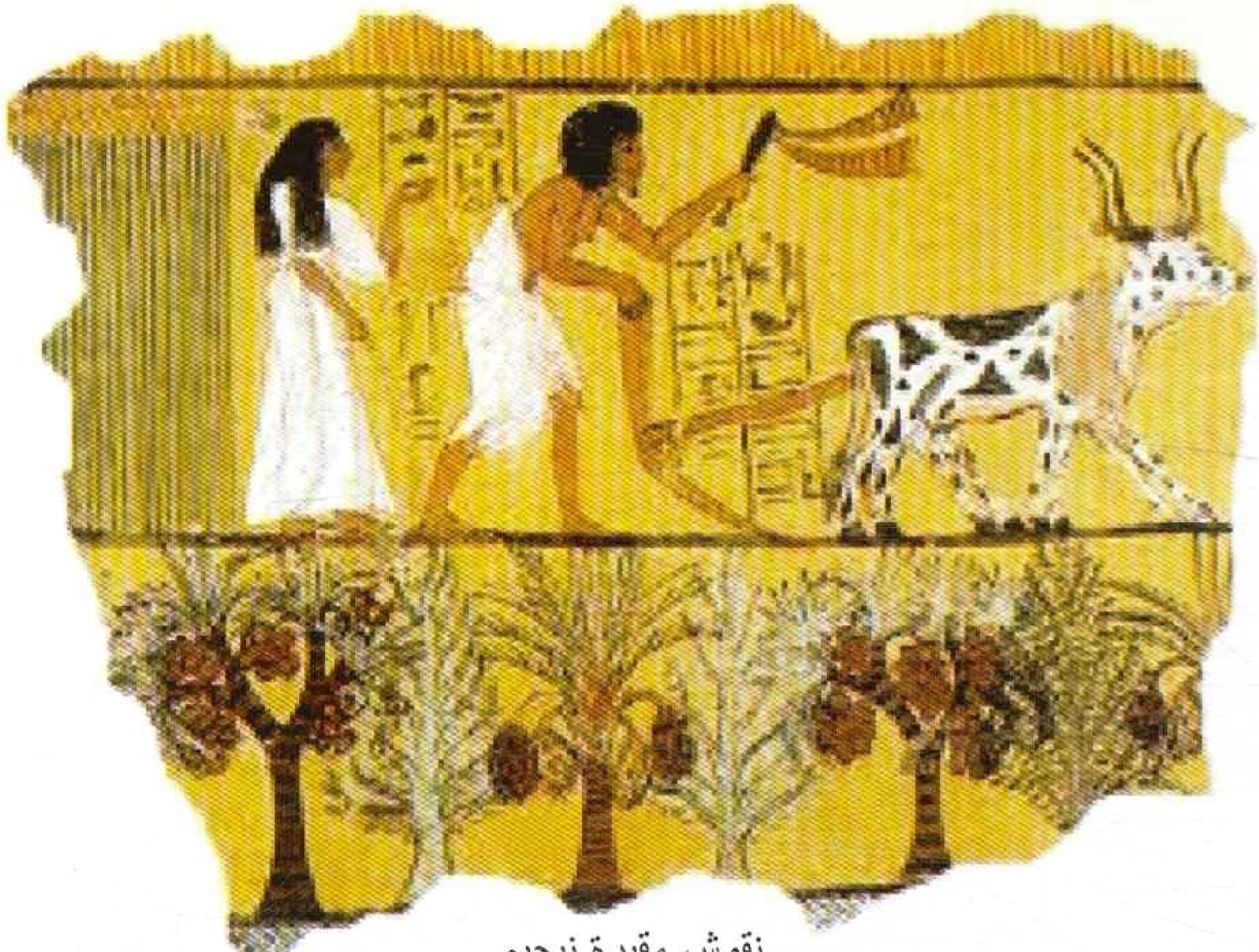
صورة السادات محفورة فوق صورة عبد الناصر
على النصب التذكاري للسد العالي



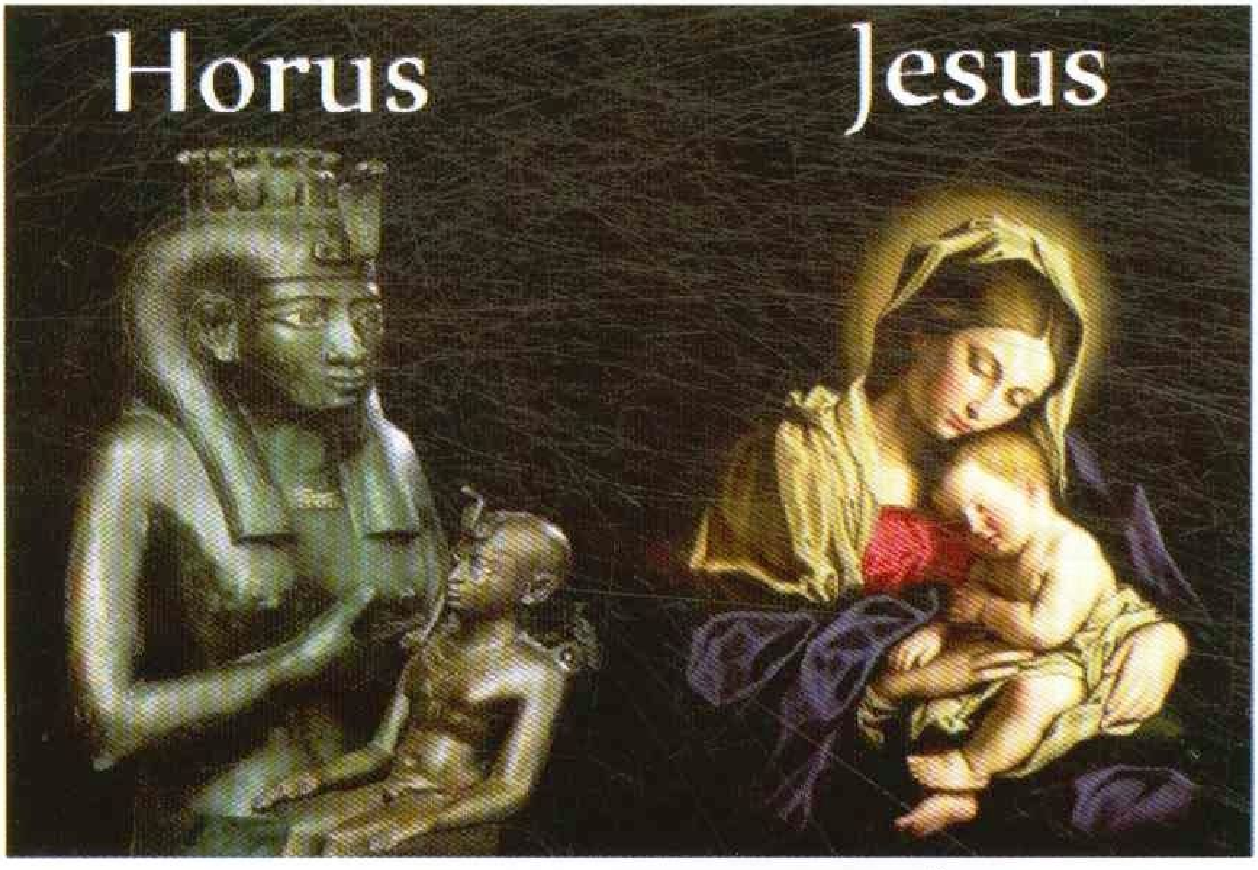
اسم رمسيس الثاني مضاف بالجص فوق
اسم أبيه سيتي الأول في معبد أبيــدوس



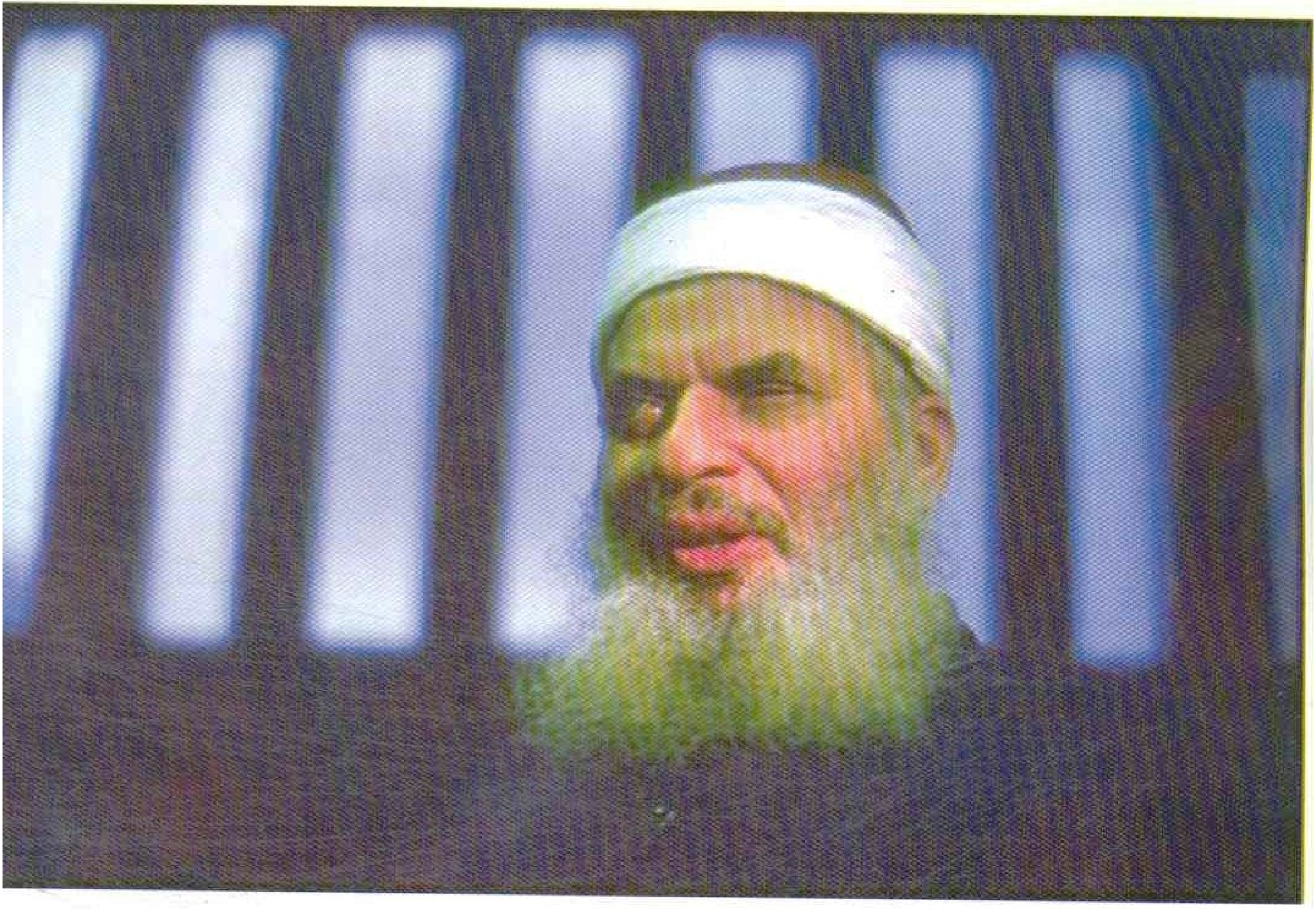
الرئيس المؤمن أنور السادات ونائبه حسني مبارك



نقوش مقبرة نيجيم



أمومة السيدة العذراء والآلهة الفرعونية



الشيخ عمر عبد الرحمن



انتفاضة الأمن المركزي ١٩٨٦


سموم في النيل


البحث في القمامة